

المــــريـــــد

في

صحبة عبد الحليم عويس

وليد كسَّاب

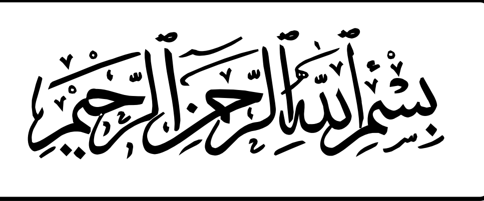
تقديم

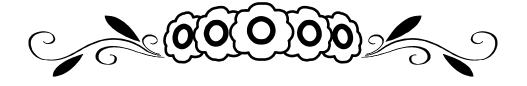
أ.د/ سعد مصلوح

أ.د/ خالد فهمي

دار البشير

للثقافة والعلوم


بسم الله الرحمن الرحيم



ليس هذا الكتاب سيرة ذاتية للمريد..
ولا تأريخًا لحياة الشيخ..
إنما هو بعض ما جرىٰ بيننا..
وشذرات من أحوال الشيخ مع بنىٰ آدم..

***

فإلىٰ روحه الطاهرة:
حُبًا بحُبٍّ ..
ووفاءً بوفاءٍ
وعرفانًا...
إلىٰ يوم نلقاه

***



اســم الكتـــاب: المريد..في صحبة عبدالحليم عويس
التـــأليـــــــــف: وليدكسَّاب
عـــدد الصفحــات : **160**
عـــدد المـــــلازم : **10**
مقاس الكتـــاب : **14 × 20**
عـــدد الطبعـــات : الطبعة الأولى
الإيداع القانونـي : **2014/2839**
الترقيم الدولــي : **I.S.B.N.978/977/278/418/8**
الصــف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

التوزيـع والنشـر

دار البشير للثقافة والعلوم
darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت : **01152806533 - 01012355714**

1436 هـ
2015 م

دار البشير للثقافة والعلوم

وأولئك هم المفلحون

تقديم وتحية للعزيزين عبد الحليم عويس ووليد كساب

بقلم: أ.د/ **سعد عبد العزيز مصلوح**

أستفتح قولي بحمد الله، وأثنِّي بالصلاة وزكيِّ التسليم علىٰ رسوله ومصطفاه، وأسأله الرضا عن أصحابه وآل بيته ومن تبع هداه. ثم أمَّا بعد؛

فالشكر واجب لأخي وصديقي الأستاذ وليد كسَّاب مصنف هذه الرسالة النفيسة؛ إذ أنزلني في هذا المقام الكريم لنقضي بعض ما وجب علينا لعزيز فقدناه، وهمُّك به من عالم عامل، كان بيننا ملء السمع والبصر والفؤادِ. ولقد قرأت الرسالة منجَّمة قبل أن تصير إلىٰ ضُمامة بين دفتين، فإذا هي سِفرٌ وفيٌّ وافٍ، أشهدني بعين البصر والبصيرة أخي وحُبَيِّبَ نفسي عبد الحليم عويس في مرائي حياته المختلفة؛ طالب علم وزوجًا وأبًا وعالمًا مستحصدًا، روَّاحًا وغدَّاءً في مجامع الخير، مناقشًا ومحاورًا ومجادلا، صادق الرعاية والحفاية بتلاميذه ومريديه، سمحًا خفيض الجناح لرفاقه ومشايخه وأصحاب الحقوق عليه.

بلىٰ! رأيته مَشْهَدَ صدق، وما كذب الفؤاد ما رأىٰ. إنه هو علىٰ ما كان منذ عرفته أمدًا يهدف إلىٰ خمسة العقود، إلىٰ أن أراد الله جوارًا أكرم من جوارنا، ورفقة خيرًا من رفقتنا.

سبقتُهُ– رحمه الله– إلىٰ دار العلوم بأعوام قلال، فكنت معيدًا إذ كان يخطو خطواته الأولىٰ في أول أعوام الطلب. وانقضىٰ العام والعام لا نتراءىٰ ولا نتخاطف الحديث إلا بما تتيحه سوانح الفرص علىٰ غير قصد ولا عمد.

وما كان ذُرُورُ ثالث أعوام الطلب حتىٰ كان عبد الحليم بين أبناء الدار قيدَ الأبصار ومستجرَّ الحديث، ولاحت شواهد منبئات علىٰ خبيء ما تضمره له الأيام من عطايا ربه الجسام ومنائحه السنية. لقد كان –رحمه الله– يعرف ما يريد، واتخذ العدة درسًا وقراءة وتمثُّلا، وحمل نفسه علىٰ الصعب جهادًا واجتهادًا حتىٰ يتم الرسالة التي ادخره الله لها. ولم تخل أيامه ومواقفه الأولىٰ من ثورة وفورة وجماح هذبتها التجارب والدروس في ما بعد.

أذكر في خواتيم عشر الستينيات من القرن الماضي أنِّي لزمتُ الفراش ذاتَ مرضٍ، وجاء عبد الحليم يعودني فوجد عندي نفرًا من الأصدقاء كانوا طرائق قددًا في شؤون الفكر والسياسة علىٰ غير تعارف سبق. وما إن تنفَّست الماركسية علىٰ لسان أحدهم حتىٰ كان –غير مُحْتَسِب– رميَّةً لمقاذيف عبد الحليم، وإذا هما يتكايلان وينتشبان، ولأيًا ما سكنت النفوس وباخ العجيجُ والضجيج. كذلكم كان أمر عبد الحليم في مطالع الالتزام. بيد أن قارئ كتاب عزيزنا الأستاذ وليد بن كسَّاب –وهو الذي صحب الراحل العظيم في الحقبة الأخيرة من العمر– مستطيعٌ أن يستبين لنفسه فِعْلَ التجربة في هذه الشخصية الفاذَّة المُسْتَأْحِدة؛ فلقد سجا طبعُهُ علىٰ قدر ظاهر من الرِّكزة والتلبُّث، ثم

ثـم نَحَـا بِـهِ إلـىٰ فهـم حـصيف للبـشر، وإدراكٍ واعٍ لقواعـد المعاملـة والجدل أَفَازَتْهُ بالسهم الربيح في كثير من المواقف، وما كـان منـه ذلـك عن تحـوُّلٍ أو تـأَوُّل؛ بـل ظـل في ذات عقلـه وذات صـدره علـىٰ نحِيزَتِـهِ الفكريـة الأصـيلة حتـىٰ غَـدَا بمـا وفقـه الله إليـه مـن الجـد والجهـاد والاجتهـاد فارهًـا في العلـم، وفَـرَقَ بكتاباتـه النيِّـرة المخلـصة بحـور التاريخ وفلسفة الحضارة، جامعًا إلىٰ سلامة القلـب وطيـب المحاسـنة وصفاء النفس من كل كُدُورة حَزَامَةً وصَـرَامَةً في العمـل بلـغ بهـما رتبـة عصيَّة الإدراك، ومنزلةً لا تُنال بالتشهِّي.

وإذا تحولنـا بالحـديث مـن العـام إلـىٰ الخـاص فـإني أتحـيَّن هـذه السانحة لأعالن الأحباء من القرَّاء أن لعبد الحليم عليَّ من الأيـادي مـا أعدُّ منه ولا أُعـدِّده. ولعـل سـنام أياديـه عنـدي أن الله وصـل علـىٰ يديـه أسـبابي بعـدد مـن أولـي الفـضل والـسعة والـسابقة في الجهـاد يقـدمهم الراحلان الكريمـان الأسـتاذ عمـر التلمساني والأسـتاذ صـلاح شـادي، والأستاذ الدكتور جمال عطيـة أطـال الله في النعمـة بقـاءه. وكـم ضـمتنا غـدوات وأمـسيات في سـكنه المعمـور بحلـوان والعجـوزة، وحـسبي بذلك من فضل أختبئه له عند الله، والله عنده حسن الثواب.

ذلكـم هـو عبـد الحلـيم عـويس متعلمًـا وعالمًـا ومجاهـدًا في الله، ومنافحًا عن دينه وتاريخ أمتـه وحـضارة الإسـلام، أمـا سـخاؤه وجـوده ورعايته لطلاب العلم وذوي العيلة من شـتىٰ الأعـراق والأجنـاس فقـد تكفل أخي الوليد –بحكم صحبته إياه مُلاوة طيبة من حياته المباركـة– بالإبانة عنه أحسن بيان. وإذا كنت قد طويت السنين القهقرىٰ لأكـشف

اللثام عن أولية الراحل العظيم فما كان ذلك مني إلا لأقول: هكذا كان عبد الحليم عويس من شبابه الباكر ، وقد توفاه الله وهو علىٰ ما عليه كان؛ مُحَمّدِيّ القدوة والأسوة، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وما ذكرته خاليًا أو في ملأ إلا أُحْضِرْتُ القولَ الكريمَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر] . وإني لأحسبه- إن شاء الله- ممن وقاهم الله شح نفوسهم، ومن أولئك الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله فكتب الله لهم بذلك الفلاح.

ولقد كان أخي وشُقيِّق نفسي أبو أحمد عبد الحليم عويس صاحب كرامة، ولعل من كراماته هذه الرسالة التي خطَّها أبو خالد وليد بن كسَّاب بيمينه المباركة، فَأَنْعِمْ به تلميذًا ومريدًا قضىٰ لشيخه حق الوفاء، وجعل من رسالته هذه الحجة البالغة علىٰ أن خدمة العلم، والجهاد في الحقِّ، وبذل النفقة في سبيل الله غير مصحوبة بمَنٍّ، ولا مشوبة بأذىٰ، وحسن السيرة بين العباد هي أمور في إمكان كل أحد لمن شاء من الناس أن يتخذ إلىٰ ربه سبيلا.

رحم الله أبا أحمد، وجزىٰ أبا خالد عن شيخه وعن صدق الوفاء وعنَّا نحن القرَّاء المعجبين بحسن صنيعه- خيرًا، ولنِعم أجر العاملين.

سعد بن عبد العزيز مصلوح

الكويت

في يوم الجمعة

العشرين من صفر الخير 1436 هجرية

الثاني عشر من ديسمبر 2014 للميلاد

تاريخ من الذكريات: يعيد النور للشموس الغائبة

تقديم: أ.د/ خالد فهمي

كلية الآداب – جامعة المنوفية

1) مدخل: وتبقىٰ الذكريات:

تبقىٰ الذكريات مع توافر مصادر المعرفة، زادًا عقليًا ووجدانيًا بامتياز؛ لأنها مجمع أفكار عُجنت بذوب فيض من المشاعر. وكلما كانت هذه الذكريات وليدة الأحاسيس الإنسانية الدافئة المتدفقة كانت مؤثرة، ومعلِّمة، وهادية، ومحفزة.

من أجل ذلك يكون الفرح الذي يعمر النفس، ويسكب في القلب الطمأنينة، ويشيع في الحنايا البهجة الآمنة.

وأجلُّ الذكريات منزلة تلك التي تفيض بها النفوس النبيلة بغير دافع إلا من دافع الوفاء، والمروءة، وحسن العهد، والامتنان، والشعور الجارف بالمحبة لمن رحلوا وكانوا شموسًا تنير الدروب، وأقمارًا تبدد ظلمة الليالي، وتهدي في مسارب الحياة.

ثمة إقبال ظاهر علىٰ كتابات السيرة الذاتية تغازل الفطرة الإنسانية في نزوعها الطبيعي إلىٰ الأنس بالحكي، وتزداد الظاهرة، وتتكاثف أماراتها، وتتراكم علاماتها بزيادة جرعات الحكي، وتنوعه، واتخاذه مسارات كثيرة تغذي العقل والروح معًا.

2) كتاب المريد: المادة، والانتماء المعرفي، والرمز.

(**2-1**): يـضم كتـاب المريـد.. في صـحبة عبـد الحلـيم عـويس للـصديق العزيـز الأسـتاذ وليـد عبـد الماجـد كـسَّاب عـددا كبيـرا مـن الفصول في صورة حلقات تبدو مستقلة في التشكيل الطباعي، ولكنها تمثل لحمةً متماسكة، وكيانات مترابطة، منها: من هنا نبدأ، البحث عن إنسان، أصحاب علي، ديكتاتوريته التي أحببتها، معارك مولانا، عريس رغم أنفي، القطيعتان، رحمه الله كما أحبني، المنتهىٰ.

وهذا الكتاب صالح لأن ينتمي إلىٰ مجالات معرفية متعددة، وهي كثيرة، والغرض من تشقيق الكلام فيها، وتوسعته من أجل استثمارها من القارئين الكرام.

(**2-2**) الكتاب ينتمي إلىٰ أدب السيرة الذاتية بحكم ما تضمنه من ذكريات مع الدكتور عبد الحليم عويس – أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية– وهي ذكريات طالت مناطق مختلفة من الحياة، وتوزعت علىٰ الشئون الاجتماعية والعلمية والإنسانية.

(**2-2**- أ) الكتاب ينتمي إلىٰ فرع تحليل التصرفات، وهو فرع من علم حديث نسبيًا يتعلق بالتحليل النقدي للخطاب.

(**2-2**- ب) الكتـاب ينتمـي إلـىٰ مجـال دراسـة النمـاذج البـشرية بحكـم مـا تـضمنه مـن عـرض عـدد كبيـر مـن الشخـصيات، ورسـم (بورتريهات) أو صور لهذه النماذج البشرية الحيوية.

(**2-2**- ت) الكتاب ينتمي إلىٰ التاريخ الاجتماعي، ويعكس نمطا من العلاقات بين جيلين: جيل العلماء الآباء الذين يمثلهم الدكتور عبد الحليم عويس، وجيل التلاميذ الأبناء الذين يمثلهم وليد كسَّاب.

وهـو مثمـر جـدا في رصـد نمـط العلاقـات الإنـسانية بـين نـوعي هـذين الجيلين بعد أن استغل الوضع الـراهن في علاقـات أبنـاء كـل فريـق مـن الفريقين في الوقت الراهن بفعل عوامل دمرت كثيرا من العلاقات.

(**2-2**- ث) الكتاب ينتمي إلىٰ الأخلاق العملية، وذلك أنـه يعطـي مثالا حيًا وجيدًا للوفاء الجميل الذي حمل وليد علىٰ الاعتراف بفضل شيخه الكريم عبد الحليم عويس.

(**2-3**) إن استعمال الكاتب لتعبير «**المريـد**» يعيـد التـذكير بتيمـة أو موضوع شائع في تـراث التـأليف الأدبـي في الحـضارة العربيـة، وهـو مـا يعنـي الاتـصال الإيجـابي بـالتراث العربـي مـن جانـب صـاحبي الـسيرة هذه، وينقلنا إلىٰ أبعاد صوفية راقية.

والتعبير له علاقة وارتباط بالرومانسية أو الاتجاه الوجـداني بأبعـاده الإنسانية الدافئة التي تصور العلاقة بين التلميذ وأستاذه.

(2-4) ملاحظات نقدية علىٰ ما سبق:

إن فحـص مـا كتبـه وليـد كـسَّاب في هـذا الـسِّفْر اللطيـف يـدل علـىٰ مجموعة مهمة من الخـصائص الدالـة علـىٰ ثقافتـه وشخـصيته، غيـر أن ثمة ملاحظات ينبغي الإشارة إليها، وإليك بعضها:

أولًا: استعمل وليد كسَّاب بعضًا من عناوين الكتب الـشائعة الذائعـة الـصيت في الثقافـة الإسـلامية المعاصـرة في عـدد مـن عنوانـات فـصول كتابـه هـذا مـن مثـل: «**مـن هنـا نبـدأ**» وهـو كتـاب شـهير للأسـتاذ خالـد محمد خالد رحمه الله.

ثانيا: غياب التأريخ الدقيق لحادثات هذه السيرة، وهو أمرٌ مهمٌ جدًا يسهم في تجويد العائد من استثمار هذه الحكايات.

ثالثًا: تمثل العتبات التي وضعها وليد كساب مداخل إيضاحية مهمة جدًا نحو قراءة الكتاب، ذلك أنها في الغالب نصوص مختارة من كلام الشيخ، يمكن أن تكون مفاتيح مركزة لفهم عبد الحليم عويس، وهي من الملاحظ الإيجابية التي أحسن وليد كساب بإضافتها.

3- المريد: مقال في خطاب الوظائف

لعل أهمية هذا الكتاب الذي كتبه وليد كسَّاب مستصحبًا روحه الوفية، ونفسه الجميلة في حاجة إلىٰ تحليل خطاب الوظائف المرجو منه خدمتها.

وهي وظائف كثيرة ومهمة في الوقت نفسه، وفيما يلي محاولة للكشف عن مجموعة مما يلوح منها:

[3-1] الوظيفة التاريخية:

يقدم هذا الكتاب بعضًا من المعلومات التي تسهم في إضاءة مرحلة تاريخية مهمة في الثقافة العربية المعاصرة علىٰ مستويات متعددة تشتبك مع المناطق التالية:

1- التاريخ الاجتماعي لعلاقات جيل الأساتذة بجيل التلاميذ.

2- التاريخ الثقافي: وتعكسه معارك الرجل الكريم الراحل.

3- التاريخ الحركي: وتعكسه اشتباكاته مع عدد من التيارات الإسلامية.

فضلا عما تقدم، فهذه سيرة من معلومات تعيد رسم ترجمة الدكتور عبد الحليم عويس.

[3-2] الوظيفة التربوية:

إن هذه السيرة تضرب مثالا رائعًا للأستاذ القدوة المعلم، وتعطي نموذجًا طيبًا لعلاقات الصحبة والملازمة بين الأستاذ والتلميذ، وهي علاقة تستوحي تراثًا تربويًا عريقًا أسهم في تشييده التصور الإسلامي. إن الكتاب مثال حيٌ فذٌ يصور تاريخًا من أخلاق الرعاية من الشيخ للتلاميذ.

[3-3] الوظيفة الأخلاقية:

لقد أحسن وليد كسَّاب فقدم صورة حية لأستاذٍ نبيل تتجاوز حدود رعايته لطلابه المستوىٰ المعرفي/ العلمي إلىٰ الحدود الإنسانية، وهو ما انعكس في مسلك المؤلف الذي قدم بدوره نموذجًا رائعًا لأخلاق الوفاء، وردِّ الجميل، والمحبة، وحسن العهد لشيخه رحمه الله.

إن هذا الكتاب مثال ممتاز لكثير من القيم النبيلة التي تتصارع من أجل البقاء في عالم شحيح بالقيم الأصيلة.

وهو مثال ممتاز أيضًا علىٰ أن الثمرة الحلوة ناتج رعاية طيبة للبذرة التي يغرسها الشيوخ، ويتعاهدونها بالمتابعة، والإرواء، والتهذيب والتشذيب.

وليد كسَّاب اكتشاف جديد، واكتشاف حقيقي، واكتشاف يبعث علىٰ الأمل، ويولد البهجة في نفوسٍ عطشىٰ للبهجة.

من هنا نبدأ

> «**أما الذين يحاولون صنع الإنسان أو صنع حضارة، فلهم طريق آخر، طريق آخر كريم ونظيف**» ع.ع

لـم يكـن يقطـع علـيَّ خلـوتي وشـرود ذهنـي سـوىٰ الـصيحات المختلطـة للباعـة الجـائلين: «حاجـة سـاقعة، كـازوزة؟»، «حمـص، حلاوة، حَبّ العزيز؟»، «شاي؟ إوعىٰ الشاي»

كل شيء يبدو بديعًا.. أو هكذا كنت أرىٰ

نسمات الهواء العليلة تـداعب شـعري النـاعم.. حتىٰ الأهـداب لـم تسلم هي الأخرىٰ من مغازلة النسيم.

قرص الشمس الذي لاح– علىٰ استحياء– بأشعته الذهبيـة، أشـجار الفاكهة المتناثرة علىٰ طول الطريق

هناك في ركن بعيد..

يجلس رجل مكفوف بنظارته السميكة السوداء..

ما أرثَّ ثيابه.. وأندىٰ صوته..

نعم لا يجيد القراءة بالأحكام، لكن أداءه الصوتي كان بديعًا

فرصـة مثاليـة للتـدبُّر أتاحتهـا لـي قراءتـه البطيئـة وتكـراره للآيـات، وإنصات الغالبية له

يا إلهي!

آيات كأني لم أسمعها من قبل..

انصرف الرجل ومعه مبلغٌ لا بأس به من السمِّيعة، وسرعان ما انتقل إلىٰ مكان آخر مجاور

لكن.. ظل صوته الرخيم يطنُّ في أذني: [لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا]

وعادت الثرثرة لتتسيَّد الموقف..

أمامي.. جلس طفل صغير يسأل أمه في براءة:

- مصر كبيرة قوي يا أمي؟!
- هي أكبر من بلدنا يعني؟
- طيب القَطْر ده هيوصل إمتىٰ؟

أسئلة مرهقة لم تجد الأم بُدًّا من الإجابة عليها.. باقتضاب

«اقرا الفضايح، اقرا الفضايح بنص جنيه»، صاح البائع وقد أمسك بيديه أعدادًا من صحيفة صفراء فاقع لونها.. تهافت عليها المراهقون

كنت مشغولا بالمناقشة، أخذت أقلب صفحات بحثي

أضع نفسي موضع المناقش السائل تارة، وفِّي موضع الكاتب المسئول تارة أخرىٰ؟!

مكالمة منير شوق[1] منذ أيام منحتني دفعة قوية، يقول إنني

---

(1) مدير مؤسسة (اقرأ) التي كانت تنظم مسابقة سنوية من أكبر المسابقات البحثية والإبداعية التي تحظىٰ بمشاركة كبيرة من الشباب، وكانت هذه المرة الأولىٰ التي أشارك فيها في المسابقة لعام2000م بموضوع (أبوعبيدة بن الجراح.. الرجل والسيف!!).

حصلت علىٰ المركز الأول بعد تقييم اللجنة للأبحاث..

يتبقىٰ أن أجتاز المقابلة الشفهية لأحصل علىٰ المركز الأول، حلم يراودني في كل مسابقة أشارك فيها

سعادتي لا توصف، لاسيما وقد خوّفني بعض محترفي المسابقات أمثال الصديق العزيز أحمد عبد الفتاح ممن هم أسنُّ مني من خوض التجربة لصعوبتها.. منافسة حامية الوطيس.. باحثون وكُتَّاب متمرسون ذوو خبرات كبيرة..

علىٰ إيقاع القطار كنت أَرقُب القضبان وقد امتدت كالحياة الطويلة

جلست أُخمِّن

تُرىٰ ممن تتشكل اللجنة؟!

إن منير يتكتم علىٰ التشكيل، ولا يفصح عنها كما لو كانت من الأسرار الكنسية السبعة!

***

لا أدري لِـمَ تبادر إلىٰ ذهني اسم الرجل بوصفه متخصصًا في التاريخ الإسلامي، وهو الفرع الذي أشارك فيه بالمسابقة، كم جلست أدوّن ما يقوله في الإذاعة باهتمام بالغ..

عجيبٌ استيعابه للأحداث والوقائع التاريخية وإحاطته بجوانب عديدة من العلوم الإسلامية الأخرىٰ كالفقه والتفسير والفلسفة.. إلخ.

كان أسلوبه في الكلام شائقًا جذّابا..

في النهاية قلت في نفسي: أيًا كان المناقش، فما كان مكتوبًا سيكون،

لم يكن الأمر كما تعودت،لم يستدعوننا وفقا لترتيب الحروف الهجائية

ربما راعوا المغتربين من الفلاحين أمثالي.. أو أنهم يستدعوننا بترتيب الدرجات التحريرية

المهمُ أنني كنتُ أول من ناقشَتْه اللجنة

أدخَلَني الأستاذ عبد الكريم عوض الله..

ثلاثية هي اللجنة.. الدكتور أحمد فؤاد باشا نائب رئيس جامعة القاهرة بوجهه البشوش وخصلات رأسه التي رجَّلها بعناية فائقة.

وأستاذٌ آخر.. لاح أنيقًا رغم صلعته.. عرفت فيما بعد أنه الدكتور أحمد الحسيسي وهو أستاذ للغات الشرقية بجامعة عين شمس

وكانت المفاجأة!

ها هو الدكتور عبد الحليم عويس بنفسه ضمن لجنة التحكيم!

لا أستطيع وصف سعادتي حينها.. لقد تحول الحلم إلىٰ حقيقة،

[لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا] تلوتها في نفسي..

تكفيني رؤية هذا الرجل والجلوس بين يديه، وإنْ لم أفز بأي مركز من المراكز.. قلتُ لنفسي.

قريبا من المناقشين جلس رجل صامتٌ، طويل الشعر كثيفه، أنيق الملبس في بزة كحلية اللون

كأني أعرفه، لابد أني رأيته في الصحف، فمن يكون؟!

***

بدأت اللجنة مناقشتي، وكان مولانا أول المتحدثين، وبعد السؤال عن السن والمؤهل، أبدىٰ دهشته قائلا: سنك صغير! خريج السنة اللي فاتت بس؟!

وسرعان ما بادرني بسؤال ينتظر إجابته بـ(نَعم):

ألك صديق حاصل علىٰ الدكتوراه أو الماجستير؟!

قلت: لا، ولا أعرف أحدًا

- غريبة!

- وما الغريب يا أستاذنا؟!

لم يَرُدّ، وأردف بسؤال آخر: وماذا يعمل والدك؟!

- مديرًا بالتربية والتعليم

ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه البيضاء السوية المتراصة، ثم قال في دهاء:

- تمام، واضح مجهوده جدًا في البحث

بادرته بابتسامة ماكرة:

- فعلا، هو مَن تكفل بالتجهيزات الفنية للبحث من الكتابة والتصوير والتغليف...إلخ

بدا متشاغلا بتقليب البحث، ثم رمقني بنظرة من فوق نظارته الطبية قائلا:

- بس؟! يعني ما كتبش معاك حاجة؟!

- أبدًا، وعلىٰ فكرة أنا حاصل علىٰ الميدالية الذهبية، وقبلها

الفضية في مسابقة إعداد القادة بوزارة الشباب عن بحثين مُحكَّمين من الدكتور محمد عمارة، والدكتور إسحاق عبيد، وفزت مؤخرًا بعُمْرَة في المسابقة الإسلامية العامة ضمن عشرة فائزين فقط علىٰ مستوىٰ الجمهورية.

عندها تأكد للرجل أني مَنْ كتب البحث، ولم يُخف إعجابه بتقسيم فصوله، والمقدمة، والعتبات النَّصية، والكشَّافات التي ذيلتُهُ بها.. كان ذلك سابقة في هذه المسابقة.

جاء دور الدكتور أحمد فؤاد باشا ــ وكان رجلا ديِّنا عالي الخلق يأسر من يتعامل معه بحسن معاملته وتواضعه الجمّ، وسرعان ما انتقلت الدفة إلىٰ الدكتور الحسيسي الذي استرعىٰ انتباهه أني استخدمت الأرقام (1، 2، 3) بديلا عن الأرقام التي تسمىٰ بالعربية (1، 2، 3).

قلت: لكن هذه هي الأرقام العربية، وما تقصدها سيادتك تسمىٰ بـ (الراشيكات الهندية).

لم تكن إجابتي مقنعة له، عبثًا حاول إقناعي.. احتكم إلىٰ الدكتور عويس باعتباره أستاذًا للتاريخ والحضارة، فأيدني فيما ذهبت إليه، ومنع الدكتور فؤاد باشا حياؤه أن يُحرج المناقش الآخر، لقد رأيته وهو يهز رأسه موافقًا لي في رأيي دون كلام.

انتهت المناقشة علىٰ خير.

والتفت الدكتورُ عويس إلىٰ الرجل الصامت القابع خلف مكتبه مقترحًا عليه أن يستعين بي ضمن فريق عمل الرابطة التي يتولىٰ أمانتها.

لم أكن أدري يقينًا مَن هو، ولا ما هي مؤسسته؟!

تسرب إلىٰ أذني اسمه.. الدكتور جعفر..

نعم، الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية والنائب الأسبق لجامعة الأزهر الذي كان حاضرًا بصفته الأمين العام لـ(مؤسسة اقرأ).

أبدىٰ الرجل موافقته علىٰ اقتراح الدكتور عويس.. وهممت بالانصراف، وقد وقع في نفسي أن أنتظر الدكتور عويس بالخارج..

وكأنه قرأ ما في نفسي، فسألني:

- إنت مسافر البلد؟!

- نعم.

- معي السائق بالخارج، أعطه رقم هاتفك.. وخذ أرقامي وعنواني في المحلة الكبرىٰ، وفي انتظار زيارتك لي.

كان العرض أكبر مما أتخيل!

ما زلتُ أذكر خفقان قلبي خفوق طائر صغير عندما أعلن عن رغبته في لقائي ثانية.

وانصرفتُ أُتمتم.. [لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا]

ومن هنا كانت البداية....



يبدو أنها دعوة أمي!



«فالطريق إلىٰ استئناف الخيريّة واسع ميسور... لو صحت منا العزائم والنيّات».

ربما لا أستطيع وصف مشاعري بعد انتهاء المناقشة وخروجي من المؤسسة..

إن أقصىٰ ما تمنيته حينها أن أحظىٰ بمقابلة الرجل..

مجرد مقابلة تأنس منها العين، بعد أن أنست الأذن أيامًا وهي تتلقىٰ فيوضاته الماتعة عبر موجات الأثير..

ها أنذا أعود بمغانم لم أتوقعها ولم أتمنها؛ لأني ما تصورت أن تُتاح لي يومًا..

حظيتُ بوعد بوظيفة مرتقبة في وقت عزَّت فيه الوظائف، ورافقها المركز الأول بإجماع اللجنة الموقرة..

أيام قليلة وظهرت نتيجة المسابقة، وكنت الأول رغم أني أصغر المتسابقين قاطبة..

في نهاية الأمر التحقت بالرابطة، وولجت عالما جديدًا، وكان عليَّ أن أنتقل إلىٰ القاهرة؛ لأقيم مع صديقي ياسر الشاذلي الذي تعرفت إليه من خلال صديق العمر أحمد يحيىٰ..

وما تلىٰ ذلك من أيام أضيف إلىٰ دائرة حياتي الجديدة أصدقاء جدد، لاسيما أصدقاء العمل أحمد سليمان، وياسر عدوي، ثم

الصديق السوداني المثقف محمد حيدر.. ومع ذلك ظلّ إحساس الغربة يظلل عالمي، ويثقل بقيةَ يومي بتيه الفراغ.

حقًا.. كنتُ تائها عن نفسي، وليس ثمة أنيس سوىٰ صاحبنا الشاذلي صاحب القلب الطيب والخلق النبيل، يأتي من عمله في وقت متأخر من الليل فنتسامر ونتضاحك ونتجاذب أطراف الحكايا والفكاهات، وسرعان ما أنام فيُكمل هو المسيرة.

في هذه الأثناء كان الدكتور عويس كثير السفر لحضور الفعاليات المختلفة، مرة أسأل عنه فأجده في الجزائر، ومرة في الهند، وأخرىٰ في السعودية، وهكذا دواليك..

وفي يوم كنت أجلس مع عمٍّ عواد ــ رحمه الله ــ مدير مكتب الأمين العام للرابطة، وهو يأنس لي ويحكي لي بطيبته المعهودة وتلقائيته عن السنوات الطويلة التي عاشها في السعودية مع أعلام الفكر والدعوة الإسلامية أمثال الشيخ منَّاع القطان، والشيخ سيد سابق، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد الراوي وغيرهم.. لكم كنت أغبطه علىٰ هذه الصحبة الطيبة.

دار الحديث عن الدكتور عويس فعلمت أن العلاقة بينهما وطيدة، وقصصتُ عليه ما كان بيننا في المسابقة، فبادر الرجل واتصل بمنزل الدكتور عبد الحليم..

لقد عاد الرجل بالأمس

كلَّمه عمي عوَّاد، وكانت المفاجأة

إنه أيضًا يبحث عني!

طلب مهاتفتي..

رددت بصوت متحشرج لا يكاد يبين، ولكن روحه الودودة ودعابته عبرت بي فوق سياج الخوف والتردد، وأزالت ما رَانَ علىٰ نفسي من رهبة الرجل والخشية من محادثته..

عليَّ أن أستجيب لدعوته الفورية التي علمت فيما بعد أنها جزءٌ لا يتجزأ من حياته، فالويل كلَّ الويل لمن يتأخر عن موعده أو يتأبىٰ علىٰ الحضور في الحين المتفق عليه، وإن طرح بين يديه الأعذار والعِلّات.. فكل ذلك غير مقبول.

إذًا.. عليَّ الحضور إلىٰ شقة الأتراك، وهي لحسن الحظ علىٰ بعد خطوات من مقر عملي..

متأخرًا عن موعدي عدة دقائق وصلتُ، ولم يشفع لي كوني أطرق عالمه لأول وهلة، حيث بادرني بقوله: لو عايز تكمل معايا ضروري تضبط مواعيدك؛ لأني لا أعرف إلا الانضباط، فاهم يا عم الشيخ وليد.

رغم التعامل الصادم، فإنني سُررت في نفسي أيما سرور، فقد جئتُ فقط لزيارته زيارة عابرة بينما هو يتحدثُ عن ملازمتي له.

يبدو أنها دعوة أمي، لا، بل وجدتي.

اعتذرتُ بشدة.. إنني هنا منذ وقت ليس بالقليل إلا أن البحث عن البناية أضناني بسبب من تشابه المداخل والمخارج.

تشاغل عني كأنه لم يسمع شيئا، وبسرعة طلب لي الغداء.

ورغم جوعي الشديد حاولت الاعتذار متلطفًا بحجة أنني لست

جائعًا، كذبتني مَعِدَتي.

لم يُجبني أيضًا.. وبدأ يسّاءل عن أصناف من الطعام لا قِبل لي بها.. أطعمة غريبة لم تعهدها أذني من قبل، فسكان الشقة كلهم من الطلاب الأتراك باستثناء آسيوي وآخر أفريقي، توافدوا علىٰ مصر للتعلم في الأزهر.

جاءت الساعة الموعودة وجاءونا بأنواع كثيرة من الطُّعُوم، وكانت (المقلوبة) سيدة الموقف.. خلطةٌ عجيبةٌ من الأرز واللحم والبطاطس والبصل، وربما الطماطم- شكَّ الراوي- توضع طبقاتٍ بعضها فوق بعضٍ، أكلة شهية جدًّا، لم يعكر صفو لذتها إلا وضع الزبادي والسلطة الخضراء بجانبها في نفس الطبق الكبير، ومن عادة الأتراك أكل الزبادي مع اللحوم أو أي مطبوخ آخر، وهو ما لا يروق لي، فما علاقة الشامي بالمغربي؟!

لاحظ الدكتور عويس تحرجي بعض الشيء من الطعام؛ فأخذ الزبادي وسَكَبَه علىٰ المقلوبةِ أمامي.

يا لتلكم الطامة!

ما تصورتُ في حياتي أن آكل مثل هذا الطعام، هو في نظري أدنىٰ إلىٰ العكِّ منه إلىٰ الأكل..

لم يترك فرصة لردِّي، ومن ثم اضطررت إلىٰ الأكل رغم بشاعة الموقف، وكانت نفسي تحدثني أن أترك الطعام وأعود من حيث أتيت ولو كلفني ذلك قطع علاقتي بالرجل، وهي لمَّا تزل وليدة في المهد..

كدت أن أصيح: ما هذه الديكتاتورية؟! كيف آكل شيئًا لا أُحبه؟!

وكان السكوت والإذعان لسبب لا أدريه...

انتهىٰ الدكتور من طعامه؛ فتنفست الصعداء، إلا أن فرحتي أبت بلوغ مبلغها، فقد صدر الفرمان السامي بألا أقوم حتىٰ أنتهي من طعامي.

وثانية كان السكوت والإذعان!

انتهينا من الطعام، وصلينا المغرب، وتحلَّقنا جميعًا حول مولانا..إنها المرَّة الأولىٰ التي يستمع إلىٰ قراءتي.

صلينا العشاء ودخلنا في درس آخر، فكنت أقرأ من الكتاب، والدكتورعويس يشرح ويتدخل بالتعليق وقت الحاجة.

لقد تأخرتُ علىٰ صديقي (ياسر)، إنه الآن ينتظرني علىٰ العشاء، من المؤكد أنه قلقٌ لا محالة.

كنت أرجوه الانصراف من وقت لآخر دون جدوىٰ... لقد صدر قرار آخر بالمبيت معه هذه الليلة.

لكَ الله يا ياسر..

تعشَّ وحدك، واسهرْ وحدَك، واصحْ في الصباح وحدك..

بل من اليوم تعود أن تصحوَ دائما وحدك.



ديكتاتوريته التي أحببتُها..

«فما زالت الأزمة الحضارية قائمة.. والاستبداد يزداد ضراوة»

بدأت علاقتي تتوطد سريعًا بالرجل.. أصبحتُ أسير صحبته ليل نهار، وانحصرت آفاق حياتي بين العمل والرجل.

وصار الأصل هو المبيت عنده، وما سوىٰ ذلك استثناءٌ لا يُقاس عليه.

في البداية وجدتُ عناءً شديدًا حيال ديكتاتوريته التي أحببتها فيما بعد، وقاومت نفسي المتمردة علىٰ تقبُّل هذا الوضع الصعب... وخبرَ الرجل عصبيتي وسرعة انفعالي و(أَنَفَة الفلاحين) كما كان يحلو له أن يُسمِّيها، وكثيرًا ما يقول: ليس بك عيب سوىٰ عصبيتك، وارتباطك بالبلد، وعقوقك لي فيما أُشير عليك به.. وعقوقي إياه الذي قصده هو أمر الزواج؛ حيث كنت عزبا يومذاك.

نال مني الإرهاق نيلا كبيرا، فقد كان– رحمه الله– دائم التنقل من مكان إلىٰ آخر، مرة في شقة العجوزة، وأخرىٰ في شقة الهرم، وليلة في وادي حوف بحلوان، وأخرىٰ عند الأتراك، وكثيرا ما أسافرُ معه في سيارته الفرنسية القديمة **Peugeot** إلىٰ مدينة المحلة وقريته (سندسيس).. وهكذا صرتُ رحالةً من حيثُ لا أدري.

لم أكن وحدي في المنظومة المحيطة بالرجل، بل تعددت مسارب

العلاقة بينه وبين عدد من الأصدقاء وطلبة العلم، فهناك الصديق الدكتور عبد الوهاب القرش، لصيقه الدائم قبل قدومي، وهو رجل قليوبي مهذب، والصديق الدكتور يحيىٰ العباسي صاحب الثقافة الواسعة، وطارق- سكرتيره السابق في (دار الصحوة) التي كانت شراكة مع الشيخ القرضاوي، والشيخ الغزالي- رحمه الله- أيضًا.

***

عشقُ الرجل للعمل ليس له نظير..

نعمل في إعداد رسالة شهرية لمجلة الدعوة السعودية سواء بالكتابة أم بالاستكتاب، أو تنقيح كتاب قديم له لإعادة طبعه..

نجهز حلقاتٍ يومية مع الدكتور فوزي خليل- رحمه الله- في برنامجه (الإيمان والحياة)..

هكذا كنا.. نَصلُ الليل بالنهار بين صفحات الكتب والمراجع.. ومن حينها جفاني الوَسَنُ وجفوته علىٰ كره مني، فغبطتُ أهل الكهف علىٰ نومتهم الهنيئة.

يثير مني مواطن العجب في شخصية الدكتور عويس، أنه كان يطلب أن أوقظه بعد نصف ساعة أو ساعة علىٰ الأكثر، وكثيرًا ما كنت أشفق عليه فأتركه حتىٰ يستريح لعلمي أنه لم ينم، فيصحو مرتاعًا وكأنما لدغتْهُ حيَّةٌ، ثم يصيح قائلا: يا أخي الله يهديك، بقولك صحيني بعد نص ساعة تسيبني نايم ساعة بحالها.

يا إلهي!

إن ساعة واحدة لا تكفيني لاستدعاء النوم نفسه، فكيف له أن ينام هذا الوقت الوجيز، فتقر به نفسه؟!

لابد أنه خلقٌ آخر.. أو هو تركيبة إنسانية مختلفة..

يستغلُّ كل لحظة من حياته، إما بالقراءة، أو بالكتابة، أو بالمراجعة، أو ما عدا ذلك من شئون الفكر.

***

وخصومته- رحمه الله- للبرد قديمة وتاريخية، سواء أكُنَّا في البيت أم في السيارة، لكن الأمر يخرج عن نطاق التحمل إذا كُنَّا في الصيف؛ حيث نركب السيارة فلا يفتح نافذته، ولا يسمح حتىٰ بفتح نافذتي، ولو بصيصًا أتنسم شيئًا قليلا من الهواء، والويل لمن ركب في المقعد الخلفي، فسيصل إلىٰ وجهته مشويًا أو مقليًا.

والوضع في الشتاء أشدُّ ضَرَاوة حيث التحرز من الرطوبة والهواء، فالحجرة لابد فيها من تشغيل التكييف الساخن والمدفأة مع موقد الغاز الذي نستخدمه في عمل المشروبات الساخنة، مع تغليف أجسامنا بكل ما تيسَّر من الملابس والعباءات، ما كان منها مغربيًا أوتركيًا أو حتىٰ قوقازيًا..

وهكذا تصطبغُ وجوه الحاضرين بالحمرة، لا خجلا وحياءً؛ بل بفعل الأفران التي لا يرضىٰ بغيرها بديلا، والويل كل الويل لمن تسول له نفسه فتح الباب، ولو يسيرًا، أو إبطال مفعول أية وسيلة للتدفئة، وإلا وقعت عندها الواقعة.

إنها ديكتاتورية من نوع خاص!

***

خبرته بقيادة السيارات وعلمه بدروب القاهرة وحواريها لا مثيل لها، لَكَمْ طلب مني تعلم القيادة، إلا أني لم أحبها يومًا، ولا تخيلتُ قابليتي لهذا الأمر، ولذا كان يتندَّر قائلا: والله كويس، حضرتك قاعد كده وأنا سايق.. يعني سواق بدرجة أستاذ دكتور! يا أخي الله يهديك اتعلم السواقة بقىٰ!!

لم يكن المصحف المرتل للشيخ محمد أيوب ليبرح السيارة ألبتة، إنه يُحِبُّه حُبًا جمًا، يستمع إلىٰ جزء واحدٍ يوميًا للمراجعة معه بصوت عالٍ، وربما بَدَا له أن يستمع إلىٰ قراءتي ويطلب مني الإسراع في القراءة إلىٰ درجة (الحَدْر) حتىٰ تقطَّع أنفاسي..

يا للعجب!

الرجل يستظهر القرآن كما لو كان قريب العهد بحفظه، وكثيرًا ما يقرأ في الصلاة بمواضع لا تخطر لمُصَلٍّ علىٰ بال.

لا أزال أذكر قراءته الخاشعة في سورتي (هود) و(يونس)، وكذا الآيات التي كان يُفضل قراءتها من سورة الأعراف (فلما ذهب عن موسىٰ الغضب..)، وطالما قرأها في الصلاة فبكىٰ وأبكىٰ..

دَهَشَني هذا الأمر! فكيف لمثله أن يحفظ هذا الحفظ المُتْقَن؟!

سألتُه عن ذلك، ففاجأني بأنه أزهري حتىٰ مرحلة الثانوية!

***

لـيلًا كُنـا..في طريقنـا مـن مدينـة نـصر إلـىٰ العجـوزة، صـعدنا فـوق كـوبري أكتـوبر، كنـت متعجِّلا الوصـول، لـيس للنـوم فحسب؛ وإنمـا لأتنفس بعض الهواء المُحرَّم.

يا إلهي!

تعطَّلـت السيارةُ، وتوقفـت بنـا في مكـان صـعبٍ جـدًا، هنالـك عنـد انحناءة الكوبري باتجاه العباسية، ولـم يكـن بُـدٌّ مـن نُزُولـي والوقـوف خلف السيارة ملوِّحًا بكلتا يدي لعل قادمًا يرق لحالي.

أزْبَدَ مولانا وأَرْغَىٰ..

ها هو أحد الخلق- أكرمه الله- يستجيبُ متطوعًا لإصلاح السيارة، وتم له ذلك في وقت قياسي.

ظلَّ البعض يُشيرُ عليه بشراء سيارة (أتوماتيك) بـدلا مـن سيارته القديمـة، إلا أنـه كـان يتـأَبَّىٰ حتـىٰ نـصحه الأطبـاء المعـالجون بـذلك؛ فسأل عـن سيارة رخيـصة الـثمن تـؤدي الغـرض، فأشـار عليـه الـبعض بسيارة (دايو) جديدة، فقبل الأمر.

***

لـم تقتصر علاقة الدكتور بالطلاب الوافدين علىٰ تدريس العلم، بل تعدَّىٰ الأمر ذلك بمراحل.

يجتمـع في بيتـه العربـي والأعجمـي، والأبـيض والأسـود، والكبيـر والصغير، وقد خصص عدة شقق للوافدين في حلوان.

يتكفَّـل بنفقـاتِ كثيـرٍ مـن الأسـر الوافـدة التـي كانـت تـضم الطالـب

وزوجته وأطفاله، فيظل حتىٰ يتخرج فىٰ رعاية الدكتور.

ولـن أنـسىٰ أن طالبًـا آسـيويًا احتـال فـأخرج زمـلاءه مـن الـشقة المخصصة لهم وتزوج بها، فعلـم- رحمـه الله- وعاتبـه، بيـد أن معرفـة الطالب بطيبة الرجل جعلته يرفض ترك الشقة رغم توفير مولانا مسكنا بـديلا لـه.. فقـد رتَّـب أمـوره علـىٰ ذات المـسكن وحَـسَمَ أمـره، ويـا للعجب، كان له ما أراد.

ومن أغرب المواقف التي حدثت معه يوم أن جاء مـن البلـدة ومعـه كمية كبيرة من الأرز فطلب مني مصاحبته، توجهنا إلىٰ بعـض الطـلاب الأجانب، وحمل حِمْلًا ثقيلًا.. وأصرَّ أن أحملَ حملا خفيفًا!

وصلنا إلىٰ باب الشقة، استأذنني في النزول إلىٰ الطابق الأدنىٰ حتـىٰ يدخل، ثم الصعود ثانية وكأنني جئـت للتـو، لـم يُـرِدْ أن يـراني الطـلابُ حالَ تصدُّقه عليهم..

تـذكرت حينهـا الأسـاتذة الـذين كـانوا يتفنَّـنـون في تـصفير جيـوب الطلاب، تارة بالكتب، وتارة أخرىٰ بالمذكرات، وهكذا دواليك!

رحمه الله.

كان مرهف الحِسِّ، طيب القلب، ناصعَ النفس مُطْمَئِنَّها.

***

بيـت الرجـل بمدينـة نـصر مقـصد لكـل الطـلاب علـىٰ اخـتلاف أعراقهم، يأتي الواحد منهم فيطلب ما راق له من الطعـام وكأنـه في (أبـو شقرة) أو (الدهان)، أو (أستاذ حمـام) ولـيس في منـزل، حتـىٰ إن طالبًـا

روسيًا جاء وزميل له قبل شهور قليلة من وفاته، فأمر له بالطعام والشراب، فقامت زوجته بإعداد الطعام– وكنا في وقت متأخر من الليل– خرج الضيفان لتناول الطعام وسرعان ما عادا مغاضبين، فسألهما الدكتور: لِمَ لَمْ تأكلا؟! فقال أحدهم بلغة متكسِّرة: أستاذ هذا جُبْن، بيض، بطاطس، فقط! لا توجد لحوم، أسماك، أرز، شوربة؟

كان محمد الحداد يراقب ما حدَث وقد احمرَّ وجهُهُ واكفهرَّ..

انتفض الدكتور حينها.. نادىٰ زوجته يوبِّخها، فتدخلتُ، وقد بلغ بي الغضب مداه.

- يا أستاذنا، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً ونحن في الشتاء، وهي منتصبة علىٰ قدميها مُذ أصبحنا.. وليس لها من عمل إلا إعداد الطعام للداخل والخارج، وهذا أمرٌ لا يُطاق.. والآن من حقها أن تخلد إلىٰ الراحة لا أن تُعيد الطبخ من جديد.

- يا أخي أنت دائمًا تدافع عنها بالحق وبالباطل.

- أليس هذا بالحق؟!

هزَّ رأسه مرارًا في حركة مِن أعلىٰ إلىٰ أسفل، ومط شفتيه ثم قال:

- بلىٰ.



أصحابُ علي

«فهل رأيتم دينًا وحضارة علىٰ هذا المستوىٰ من تقدير الحياة والإنسان؟!»

كان عليّ أن أخضع لاختباراتٍ عدةٍ قبل أنْ يوليني الرجل ثقته، ولِمَ لا؟!

أغضبني هذا الأمر في نفسي كثيرًا، بيد أنِّي التمستُ له العذر، فالرجل لم تكن له بي سابقة معرفة، وأنا أسعىٰ حثيثًا إلىٰ الجلوس بين يديه والتعلم منه، ونسيان حظ نفسي من مُتع الدنيا التي يطيبُ بها أقراني...

ظللت رفيقا له في السنوات العشر الأخيرة من عمره بشكل دائم، ولم يخفف عني هذا الأمر في السني الأخيرة سوىٰ وجود الصديق محمد الحداد الذي قام بين يدي شيخنا بإخلاص، يتولىٰ قضاء كل حاجاته، كبيرها ودقيقها، بدءًا من أعمال السكرتارية وحتىٰ تطبيبه، والإشراف علىٰ علاجه في مرضه، لا سيما في ظل غياب أبنائه، فأحمد في بعثة علمية بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول علىٰ الدكتوراه، وأنس مشغولٌ هو الآخر برسالته، فضلا عن عمله في مركز البحوث الزراعية بالمنصورة، الأمر الذي أوجب علىٰ الأخير الإقامة في المحلة الكبرىٰ.

باختصار شديد: اختبرَني الرجل حتىٰ خَبَرَني.

كثيـرًا.. كـان يتركنـي بمفـردي في بيتـه عنـد عـدم تواجـد زوجتـه لساعات طوال ثم يعود.

صِرْتُ أقيمُ معه أكثر ما أُقيمُ مع أبي، وأصحبُهُ في حِلِّهِ وتِرْحالِهِ، وبدوه وخفائه...

نزلتُ منه منزلة المُريد من شيخِهِ

***

وإن أَنْس ما حييت لا أَنسىٰ مهاتفته إياي طالبًا الحضور في ساعة يُحـدِّدها، ولـيس ثمـة مجـال للتـأخر بـأي شـكل، ثـم يُـصدر فرمانًـا بالمجيء في «تاكسي» لا في سيارة أجرة، علىٰ أن يتكلَّف هو أجر ذلك، وقبل الموعد المتوافق عليه أكون أمام الباب، فيهشّ كثيرًا، ثم يشرع في دفع المبلغ، فأفاجئه بقولي: ولكني ركبتُ (السيارة) ، خرجتُ مبكـرًا من العمل، ووجدتُ فُسحةً من الوقت.

والفِكَـاك منـه أمرٌ عـسير، ولـو سـوَّلت لـك نفسك الاعتـذار يومًـا فستخضع لاختبار عـصبي رهيـب، ولـيس أمامـك عنـدها إلا أن تـسبك من وحي الخيال حكاية، لائذا بمعصم الثبات الانفعالي..

كان ذا قـدرة علىٰ الاستدراج لا حـدود لهـا، ولـيس مـن الهـيِّن أن تقــول لــه مــثلا: رايــح أتفــسح مــع حــد مــن أصــحابي، أو أزور شخصًا...إلخ! ومن ثَمَّ كنت أُضطر إلىٰ الكذب في بعـض الأحيـان- سامحني الله وسامحه- بسبب ديكتاتوريته العادلة الرحيمة.

لـم يكـن ليرضـىٰ بالبـديل، فـإن قلـت لـه: الـدكتور يحيـىٰ سـيكون موجودًا، أو الدكتور القرش أو أصحاب عليّ، فلن يتركـك وشـأنك...

وهـا نحـن تلاميذه في جمـع غفير، قعـودا بين يديـه، فـلا يـأذن لأحـدنا بالخروج، وندور بين يديه كأننا خلية نحـل، فبإمكانـه تـشغيل عـشرة في وقت واحد بحيث لا يغفل عن أحدٍ منَّا.. ينظر من أسفل نظارته الطبيـة السميكة فلا ندري إلىٰ أيِّنا ينظرُ!

كان المطبخ المتنفس الوحيد لبعض الأصدقاء.. بعيـدًا عـن الرقابـة (المولوية)

***

أمـا عـن عدائـه للتلفـاز فحـدِّث ولا حـرَج، فلـم يكـن مـسموحًا بمـشاهدة أي برنـامج، ولـو نـشرة أخبـار، فقـط يكتفـي بتـصفح سـريع لبعض الجرائد، أو يطلب من جليسه ملخصًا بأهم الأحـداث الداخليـة والخارجية.

كنتُ أتلصَّص ومعي الحداد لمشاهدة الـدقائق الأخيـرة مـن مباراة مهمة للمنتخب أو الأهلي- أيـام كنـا نـشجع الكـرة- فـإذا أحـسسنا بـه مقبلا تظاهرنا بالعمل.

ذهبنا مرةً إلىٰ نـادي الـصحفيين علىٰ النيـل، وكانـت المبـاراة علىٰ أشُدِّها بين فرنسا وفريق آخر لست أذكره.. حرصتُ عنـدها أن يجلـس وظهره للشاشة بينما أجلسُ في مقابلها.

لـم تمـر لحظـات حتـىٰ أدرك انـشغالي بالمبـاراة بعـد أن تـشابهت ردودي في النقـاش: «تمـام»، «طبعًـا»، «أكيـد»، «فعـلا»...وعنـدها تحطمـت آمـالي في اخـتلاس المـشاهدة بعـد أن أصـدر فرمانًـا سـاميًّا باستبدال المقاعد...

سامحه الله.

كان زينُ الدين زيدان متألقًا.. حتىٰ كاد عصام الشوالي أن يُجنَّ من فرط مهاراته!

***

واستعانته ببعض الطلاب الوافدين في السفر والتنقل داخل القاهرة وقضاء بعض حاجياته واسعة وملُفتة في ذات الوقت.

أراد أحد أحبابه- وهو رجل أعمال معروف- دعوة الدكتور تبرُّكًا به وتشرُّفًا، فلما وافق طلب منه الرجل اصطحاب مَنْ شاء من مريديه، فقال له: إن شاء الله سآتي ومعي أصحاب علي.

أعدَّ الرجلُ وليمةً كبيرة تليق بالدكتور وتلاميذه، فلما كانت الساعة المرتقبة تفاجأ الرجل بحضور الدكتور ومعه شخص واحد.

سأله الرجل بدهشة:

- أين بقية الضيوف؟!

- لا أحد معي سوىٰ هذا وأشار إلىٰ مرافِقِه! قال الرجل متعجبا: ولكن أين علي؟! وأين أصحابه؟!

- أحسبت أنني سآتيك بشيعة الإمام علي يا أخي؟!

ضحك حتىٰ بلغ السعال منه مبلغه، وكانت تلك عادته، فلم يكن (أصحاب علي) إلا طالبًا واحدًا من (داغستان) سُمي بهذا الاسم المركب علىٰ عادةٍ في بلادهم!

***

حـاز الـدكتور كثيـرًا مـن المـشتركات بينـه وبـين كـل أبنـاء الفكـرة الإسلامية، فكان أن تنازع وصله الإخـوة الفرقـاء، ومالـت إليـه حمـائم الولاء، وتداعىٰ اسمه هنا وهناك.

الإخـوان يـرون نـسبه بهـم كونـه واحـدًا مـن تلامـذة الـشيخ محمـد الغزالي والأستاذ عمر التلمساني.

الصوفيون يرونه وليًّا لعلاقته بالشيخ عبد السلام أبـو الفـضل الـذي ربَّاه علىٰ يديه، وكـذلك التبليـغ، والجمعيـة الـشرعية، يقـدرون الرجـل ويعدونه منهم.

ما زلت أذكر يوم أن دُعي إلىٰ إلقاء محاضرة علمية ضـمن الموسـم الثقافي لمسجد العزيز بالله بمنطقة الزيتون بالقاهرة، وهو معقل جماعـة أنصار السنة المحمدية.

طلب مني مرافقته، فقلت مازحًا: يـا مولانـا أنـت بـلا لحيـة، ولكـن يشفع لك أنك دُعيت، أمـا أنـا فلحيتـي (تـايواني) تظهـر علـىٰ اسـتحياء، ولا تسرّ الناظرين هناك، فاذهب وحدك؛ وسآتي إليك في المنـزل عقـب الدرس..

لـم يكـن هنـاك بُـدٌّ مـن الـذهاب بـسيارته التـي ربطـت بـالمودة طلبـة العلم والمعرفة من محبي الرجل.. ودخلنا إلىٰ الشارع بـصعوبة وسـط الأعداد الغفيرة المحتشدة.

ولأن مظهرنا كان مختلفًا قياسًا بالآخرين فلم يكترث بنا أحد، علىٰ عكس ما يلقـاه في أي مكـان نـذهب إليـه.. مِلـتُ إليـه وهمـست في أذنـه

باسمًا: ألم أقل لك يا مولانا؟!

بانتظارنا.. كان الدكتور جمال المراكبي - الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية وقتها- تلقانا بترحاب شديد، وظللنا في الغرفة حتىٰ حان موعد المحاضرة.

استندت إلىٰ أحد عُمُد المسجد في مواجهة المنصة التي لم تكن سوىٰ منضدة.. وتسرب إلىٰ سمعي هذا الحديثُ الخافت بين شابين صغيرين:

- وده مين إن شاء الله؟!

- مش عارف!

- جايبين واحد حَليق يِدِّينا محاضرة؟!

- خلينا نسمع يا شيخ.

لم أشأ أن أُحرج الشابين وتركتهما لما بعد المحاضرة.

بدأ عويس حديثه بمقولته المعهودة التي لم يَحِدْ عنها قط «الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام حضارة المسلمين، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين».. ثم زاد قائلًا: وأبدأ بما كان يبدأ به شيخي ومعلمي الشيخ محمد الغزالي...».

لم يكد يذكر اسم الشيخ حتىٰ تذمَّر بعض الحاضرين، وسرت همهمات وحوقلات لا تكاد تُسمع، فالغزالي لديهم من المبتدعة الذين غيروا في الدين وبدلوا، فضلا عن أنهم لم يسلموا من قلمه ولسانه.

واصل مولانا كلامه بمقولة للشيخ وفحواها أنه لا يُشبِّهُ، ولا

يُجسِّد، ولا يُعطِّلُ.. هنا سرت حماسةٌ شديدةٌ بين الحاضرين وأعاروه آذانهم بشكلٍ مُلفتٍ..فلقد أثبتَ الرجل أنه سلفيٌ أصيلٌ.

تكلم مولانا، وصالَ وجَالَ، وطوَّف وحَوَّم، وجلسَ الناس بداخل المسجد وخارجه كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، كانوا منتبهين رغم حرارة الصيف التي لم تُفلح معها المراوح الدائرة ببطءٍ مُرهقٍ.. كما لم تُجْد نفعًا معها المبردات!

كان الرجل يسبح في التاريخ بمهارة فائقة، ويستحضر شخصيات مجهولة للحاضرين وأنا منهم، ويخوض دروبًا في التاريخ مهجورة، ويُورد شواردَ يقف الذهنُ أمامها حائرًا، ولا عجب في ذلك؛ فمولانا يجمع بين التاريخ وفلسفة التاريخ في مزاوجة لا تنفصم.

ظلَّ الرجل هكذا حتىٰ انتهىٰ الوقت المخصص له؛ فمنحه الدكتور المراكبي عشر دقائق إضافية.

استنفذها فتعالت الصيحات مطالبةً بأن يُكمل حديثه.. وتكرر الأمر مرتين حتىٰ إذا كانت الثالثة ردَّ الدكتور المراكبي حاسمًا بالرفض؛ لأن هناك متحدِّثٌ آخر بعد الدكتور.

وعدهم المراكبي باستكتاب الرجل في مجلة (التوحيد) لسان حال الجماعة، وهو الأمر الذي رحَّب به الدكتور. والحقيقة أنهم لم يتواصلوا معه بعد ذلك، ولم يتواصل معهم، ولو قُدِّر له أن يكتب في مجلتهم لكان خيرًا لهم وأشد تنويرًا.

انتهت المحاضرة، وفوجئتُ بالجموع تهدر من الداخل والخارج، الكل يريد أن يصافح الرجل، بل رأيتُ من يُسارع إلىٰ تقبيل يده،

وآخرين يسألونه عن أهم كتب التاريخ التي يجب عليهم أن يقرأوها.

اجتهدتُ في البحث عن الشابين الصغيرين اللذين كانا بجانبي،

ألفيتهما منشرحي الفؤاد بحديث الرجل، فبادرت صاحبنا قائلا: «لم أُشأ أن أَردَّ عليك ما قلتَه عن الشيخ في حينه، وتركتك لعلمي بقدر الرجل، وليقيني أنه سيأسرك كما يأسر الآخرين، ولكن لابد لك من التعلم أن الحكم علىٰ الشيء فرعٌ عن تصوره؛ فلا تجعل المظاهر تخدعك، ولا تجعل اللحية مقياسًا لدين أحدٍ»..

اعتذر الشاب بأدبٍ جمٍّ.. وانصرفتُ مع الدكتور، فقصصتُ عليه ما كان من أمر الشاب، فضحك ملء وجهه.. وطافت معنا السيارة في شوارع القاهرة الحميمة نتحدث عن ترشيد الصحوة الإسلامية ومعالجة أخطائها..

الكثيرةُ.. والجمَّة..

لكن.. من يسمع.. ومن يعتبر؟!



البحث عن إنسان

«وأعطينا الإسلام فتات أموالنا وجهودنا، وخدعنا أنفسنا ببعض النوافل، وانفصلنا عن أسلافنا الذين تعاملوا مع الإسلام بالعقل والقلب والوجدان كله»

عبثًا حاول مولانا إقناعي بشراء الهاتف الجوَّال الذي أصبح أمرًا لازمًا بعد أن كان من الكماليات، لكني كنت حسمت أمري ألا يكون لي جوَّال ما حييت، متمثلا في ذلك مذهب الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذي سألته مرة عن أرقام هواتفه فأعطاني إياها ممتنًا، وليس من بينها رقم جوَّال، فلما سألته عن ذلك قال:

«لا أحمله، فالشيطان ينصرف بالاستعاذة منه، أما هذا الجهاز فلن تُجدي معه الاستعاذة ولا الأدعية المأثورة والمنثورة».

زد علىٰ هذا أن معظم معارفي لم يكونوا يحملونه حينها إلا لداعي التباهي والمَنْظَرة، ناهيك عن الرنات التي لا تكف.

رنات فقط! والويل لمن يفكر في فتح الخط علىٰ الآخر.. فعندئذ وقعت الواقعة.

كان اقتنائي للجوَّال يعني بقائي أسيرًا لمولاي طيلة الوقت، فما أيسر الهروب من الهاتف المنزلي عند تعكر مزاجي دون أية تبعة عليَّ، لكن وجود هذا الجهاز يعني أنه سيتصل بي حتىٰ أقرب الآجال: أن أَرُدَّ، أو تفصل البطارية، أو يفصل الله بيننا!

لم يجد الرجل سبيلا إلىٰ إقناعي بهـذا الأمر حتىٰ فوجئت بـه ذات ليلة ينزع شريحته من جوَّاله ماركة Nokia ويدفع به إليَّ طالبًا مني شراء خطٍ لنفسي.

حاولت الاعتذار، بيد أن الاعتذار لم يك مجديًا، فقد سبق السيف العذل، وغلبت ديكتاتوريته مراوغات تلميذه وحِيَلَه.

وهكذا توطَّدت علاقتي به أكثر فأكثر رغمًا عني.

***

بلغ حبي للرجل أني دخلت غرفة العمليات لإجراء عملية جراحية في الأذن الوسطىٰ وخضعت للتخدير، كنت أنادي وأسأل عن الدكتور عويس، فظنَّ صديق العمر أحمد يحيىٰ أنني ما أزال في وعيي، فاتصل به ليجده خارج مصر، فلما فارقني أثر المخدِّر أبلغني بأنه غير موجود في مصر، فقلت: أعرف.

فقال: فلم طلبت مني الاتصال به؟!

فنفيت ذلك بشدة، فضحك أحمد وضحكتُ، وقلت: يبدو أن المخدر قد شملك أنت أيضًا!

***

رأيتُ في الرجل صورة العالم العامل، فلم يك يكتفي كغيره بالكتابات والخطب الرنانة التي تهز كل شيء إلا صاحبها، وتُحرِّك كل شيء إلا ذاته، وإنما يطرق أبواب الخير لكل الناس، من عرف منهم ومن لم يعرف، ويكفي أن يُذكر أمامه أن شخصًا ما لديه مشكلة– ولو في بلاد الواق واق– فعندها لابد من تقديم العون مهما غلا ثمنه،

وليتخيل القارئ أنه كان يتبرع بكثير من ماله للمسلمين في أفريقيا وآسيا..

حدث ذات مرة أن طالبًا نيجيريا من الذين تخرجوا من الأزهر وعادوا إلىٰ بلادهم كان في زيارة لمصر، فعلم مولانا من سياق حديثه أن مسجدًا لديهم بلا سقف، فسأله علىٰ الفور: وكم يحتاج لاستكمال مبانيه؟

وليته انتظر الإجابة!

بل دخل إلىٰ غرفته، وعاد بمبلغٍ كبيرٍ يتعدىٰ تكلفة السقف.

***

وربما حمل له الهاتف مكالمة من أحد رجال الأعمال مطمئنًا عليه- وما أكثرهم- فعندها يكون حريصًا علىٰ سؤاله: هل تحتاج إلىٰ أية وظائف في المصنع أو الشركة؟! فإن تيسر له ذلك أمسك الأجندة الحمراء واتصل بمن يعرف ليسأله عن العاطلين، وكثيرًا ما كان يتصل ليسألني:هل عندك محاسب؟ عامل بوفيه؟ عامل نظافة؟

لم يكن يستنكف عن مثل هذه الأمور.

وبهذا الحرص كان سببًا قدَّره الله في عمل الكثيرين سواء في داخل مصر أو حتىٰ في خارجها.

كنت ممن شملهم بترشيحه لي للعمل مستشارًا للنشر في مكتبة العبيكان الشهيرة بالرياض، وكان صديقه المفكر السعودي الدكتور عبد العزيز الثنيان قد طلب منه شخصًا للعمل في هذه الوظيفة، فرشَّحني رغم حاجته المُلِحَّة إليَّ- حسب تعبيره- وقال له: بالرغم من حاجتي إليه إلا

أنني لن أقف حجر عثرة في طريقه؛ فهو يستحق كل خير.

قابلت الدكتور الثنيان في القاهرة، ظللتُ جالسًا معه لما يزيد عن الساعتين نتكلم عن العقاد والزيات وطه حسين والرافعي، حتىٰ اطمأن الرجل إلىٰ صلاحيتي، فأراد أن يُوقِّع معي العقد في حينها، ولكنني طلبتُ منه إرجاء ذلك حتىٰ أستخير وأستشير، غير أن الرجل كان في عجلة من أمره، ووافقت في اليوم التالي وبدأت إجراءات السفر، وجاء اليوم الموعود فاتصل الدكتور الثنيان من السعودية، يبلغني بوصول التأشيرة..

حينها أحسست أن الدنيا تدور بي..

فلمن أترك والدايَ وأنا وحيدهما؟!

نعم، هما يحاولان أن يبدوا متماسكين أمامي، ولكن الحقيقة أنهما لا يرغبان في هذا الأمر، أما أستاذنا الدكتور فقد ترك لي الأمر لآخذ قراري بنفسي، وإن كان يتمنىٰ في نفسه ألا أسافر (هكذا قال لي بعدها).. فكان أن اعتذرت إلىٰ الرجل في اليوم التالي مما جعله يستشيط غضبًا.. وبقيت مع الدكتور عويس، ففرح لذلك، ودبَّت الحياة مرة أخرىٰ في أوصال والديَّ.

وكان هذا العمل من نصيب صديقي العزيز- فيما بعد- الدكتور ياسر غريب.

***

هنالك..

أمام مسجد نوري خطاب بالحي السابع بمدينة نصر، كان يجلس دائمًا رجل كهلٌ ليس بالعجوز، صبوح الوجه، وضَّاء الطلعة، ذو لحية

بيضاء مهذبة تُضفي عليه وقارًا وبهاءً، فما مَرَقْنا من هناك مرةً إلا نزل إليه شيخنا، وجاد بما أفاء الله عليه، وكم كنَّا نُغيِّر خط سيرنا من شارع عباس العقاد أو مكرم عبيد لِنَمُرَّ بالرجل..

آخر مرة رأيته فيها عندما حمل الدكتور إليه مبلغًا كبيرًا ليساعده في تجهيز ابنته..

رحمه الله، علمتُ بموته هو الآخر.

ويحكي لي الصديق محمد الحداد أنهما كانا يسيران في ليلة رخامية باردة بشارع ذاكر حسين بمدينة نصر، فأمره الدكتور بالتوقف، فإذا به ينادي إحدىٰ السيدات وقد وقفت بانتظار سيارة أجرة: تعالي يا حاجة رايحة فين؟! فأخبرتْهُ بأنها ستنزل في مكانٍ قريبٍ بالحي السادس.

ركبت السيدة ممنونة.. لم تنطق بكلمة، ولكنه أحسَّ بفراسته أنَّ أمرًا ما حَزَبَها، فبادرها بالسؤال: مالك مهمومة كده يا ستِّي؟!

انفجرت السيدة بالبكاء، فما أخرجتها إلا الحاجة المُلحَّة، إنها تعول أربعة من اليتامىٰ.. مات أبوهم وتركهم نهبًا للحياة ونهشًا للصروف وبنات الدهر.

إنها تجهز فتاتها للعرس، وتحتاج إلىٰ ستة آلاف من الجنيهات لتستكمل جهازها.

هدَّأ الرجل من روعها، وكعادته دسَّ يده في جيبه ليخرج لها مبلغًا طالبًا منها أن تترك عنوانها ووسيلة الاتصال بها، وفي اليوم التالي أرسل إليها من يستقصي حالتها..

كانت من سكان منشية ناصر حيث الثلاثي الذي أذل المصريين (الفقر، الجهل، المرض) ، جاءه الرسول ليخبره بما كان من شأنها.. فما لبث أن أخرج إليه الآلاف الستة وزيادة ليدفع بها إليها.

وهكذا الرجل يبحث عن سعادة الآخرين مَنْ عَرَفَ.. ومَنْ لَمْ يَعْرِف.

واستدعاني ذات ليلة مطيرة، فوجدت لديه مجموعة من الحواسب المحمولة (اللاب توب)، وقال: اخترْ لك واحدًا ووزع الباقي، قلت لكني لا أحتاج إليه فلديَّ جهاز، قال: فهل لديك صديق يحتاج إلىٰ جهاز بالتقسيط المريح؟! قلت: اللهم نعم، لديَّ صديق أخاله في حاجة ماسَّةٍ إليه.

هاتفت صديقي فرحَّب بذلك كثيرًا، وشرع في إرسال الأقساط.

لم ينته من سداد الثمن، فقد أمرني مولانا بأن يكفَّ الرجل عن الدفع وتبرَّع بباقي المستحقات.. ثم تبين لي أنه اشترىٰ هذه الأجهزة من محل لأحد تلاميذه تشجيعًا ودعمًا له..

ويحكي الصديق والكاتب الصحفي جمال سالم أنه رافقه في سيارته ذات مرة أثناء عودته من تسجيل حلقة لصالح إحدىٰ الفضائيات، فتطرق بهما الحديث إلىٰ المهمشين والمعذبين في الأرض، وحياة البؤس التي تعيشها قطاعات عريضة من المصريين، فحدَّثه جمال عن أحد عمال اليومية في بلدته أُصيب بالشلل التام أثناء عمله فلم تكترث له الدولة؛ لأن لديها مَنْ هم أولىٰ بالرعاية كالفنانين ولاعبي الكرة، فإذا به يُخرج المكافأة التي تقاضاها نظير الحلقة

وقدرها خمسمائة جنيه، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ويطلب منه توصيله إليه.

كان البعض يشكر له صنيعه معه، بينما يقابل البعض هذا الإحسان بالإساءة، وهو ما كان يغضب مولانا سريع الانفعال- لاسيما بعد مرضه بالكبد-، لكنه سرعان ما يعفو ويصفح.

وفي ليلة جلس غاضبًا يُحَوْقِل ويَسْتَرجِع، فسألته: ما بك يا أستاذنا؟! فحكىٰ لي طرفًا من موقف حدث من بعض مَنْ يَمُدُّ إليهم يد العون، وبدلا من مقابلة ذلك بالإحسان أساءوا ولم يبروه، ثم أقسم ألا يعطف عليهم جرَّاء عملتهم، فما كان مني إلا أن قلت له: لكن يا مولانا ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ.. ﴾ [النور:22]

وهنا تذكَّر الرجل، وقال مقولة لا أنساها: والله يا أخي هزمتني بالآية دي.

رحمك الله يا مولاي، كم كنت رجَّاعًا إلىٰ الحق.

رحمك الله سيدي كما كنت نصيرًا للفقراء، وعضدًا لأصحاب الحاجات والضعفاء.

ها أنذا من بعدك أغدو في الطرقات والسبل..

أُفتش عن وجهك في كل الوجوه، وأبحث عن ذاتي في ذاتك...

أبحث.. عن إنسان!

ملعقة بذمة

«المالُ مالُ الله.. إن شاء نَمَّاه وأَرْبَاه، وإن شاء ذهب به وأفقرَ صاحبه»

من عادة الرجل- كما ذكَرتُ- في ليالي الشتاء الاستعانة علىٰ البرد بعدة أمور، منها وسائل التدفئة المختلفة من التكييف والمدفأة وموقد الغاز الذي يستخدم في إعداد المشروبات الساخنة.

وكثيرًا ما يعمد إلىٰ بعض التمارين الرياضية من الجري في المحل أو مُلاكمة التلاميذ، وكم حظيت بلكماتٍ حنونةٍ كالهدهدة يُعبِّر بها عن استعادته للنشاط واستعداده للمواصلة، ويبث فيها بعض النشاط في التلاميذ.

ومن بواعث الضحك بيننا أنه كان إذا سأله أحدٌ عن كمية السُّكَّر التي يضعها في كوبه يرد بقوله: ملعقة بذمة.

فيقوم الرجلُ منا بوضع ملعقة كبيرة هي في الحقيقة ملعقتان، ولم يكن هذا ليعجبه فيصيح: يا أخي حرام عليك، أقولك بذمة تحط دي؟! فتوضع له واحدة أخرىٰ بذمة، وبذلك تصير الملعقة الواحدة بقُدرةِ قادرٍ أربعًا!

لم يكن ليستنكف أن يصنع لأحدنا المشروب، ويبادره بالسؤال المعتاد: سُكَّرك قد إيه؟!

كنت شخصيًا أرد بسرعة: العفو يا أستاذنا أنا أضعه لنفسي، وحينها

كان يُزبِدُ ويُرغِي، ويقول: دَعْكَ من هذه المهاترات الفارغة يا أخي.

هنا لا أجدُ بُدًّا من طلب ثلاث ملاعق بذمَّة علىٰ مذهب الإمام.

هـذا يجرنـا إلـىٰ الحـديث عـن تواضـعه، فقـد كـان الرجـل آيـة في التواضع، لم يمنعه من ذلك علاقاته الممتدة بكثير من أصحاب الجاه والـسلطان، وغيـرهم مـن الشخـصيات المعروفـة في مـصر والعـالم، وتعدد سفرياته إلىٰ بقاع الأرض وأصقاعها من الهند وإندونيسيا شرقا إلـىٰ أمريكـا غربًـا، وإقامتـه في أرقـىٰ الأمـاكن، إلا أنـه كـان يميـل إلـىٰ التواضع في كل شيء، وربما كانت سعادته بطبق البطاطس المسلوقة، أو العجـوة بـالبيض، أو المحـشي المـسخَّن جيـدًا، سـعادة لا تعـدلها سعادة.

طالما رأيته متبسطًا مع مَنْ عرف ومَن لـم يعـرف، ولـم يضق بأحـد إلا إذا كـان منشغلا بعمـل مـا، فعنـدها لا مـانع لديـه مـن إنهـاء الحـوار سريعًا، وتوبيخ المتحدثٍ لإفراطه في الحـديث، وعـدم مراعـاة الـسياق الخاص بالكلام..

***

مـن علامـات تواضـعه أنَّـا صـلينا العـشاء ذات مـرة في أحـد مـساجد منطقة العجوزة، قريبًا من شقته الواقعة بشارع طنطا.

فرغنا من الصلاة واتجهنا صوب أحذيتنا.. فهالني ما حدث!

يا إلهي!

إنه يحمل حذاءه وحذائي أيضًا.. سارعت لأنزع حـذائي مـن يديـه، فأبىٰ تركه إلا علىٰ الباب.

صرتُ في حرجٍ من أمري، وتفصَّد جبيني عرقًا، وأحسست بحمرة الخجل تصبغ وجهي..

وما إن وضع حذاءينا علىٰ الأرض حتىٰ انكببت علىٰ يديه أقبلها وسط دهشة رواد المسجد الذين يعرفون الرجل جيدًا..

ولا أدرىٰ لِمَ فعل هذا؟!

هل وجد في نفسه شيئًا من العُجْبِ فأراد زجرَها؟!

ربما..

وكان درسًا من أستاذي.

وحدث قريبٌ من هذا مع صديقي الداعية القارئ حسن صالح- الذي يعمل إمامًا لأحد المساجد بالولايات المتحدة الأمريكية- ففي إحدىٰ إجازاته اصطحبته لزيارة مولانا أيام مرضه..

صلَّىٰ بنا حسن، فأَخَذَنا إلىٰ عالم ملائكي شفيف.. فلصَوْته حلاوة تجلُّ عن الوصف.. طلب منه الدكتور أن يقرأ ويقرأ.. فقرأ حتىٰ جهد صوته وهو يستمع باكيًا.

انتهىٰ الرجل من تلاوته، فأشار إليه مولانا يطلب منه الاقتراب من فراشه، اقترب طائعًا، فباغته الدكتور بتقبيل رأسه.

وبكىٰ!

لم يكن- حال زهده- يجد أدنىٰ غضاضة في أن يفترش أرض بيته بقريته متوسدًا حذاءه وسط مجموعة من الأوراق والمجلات والكتب المبعثرة هنا وهناك.

وكـان في عُمْـرَة، فأخـذ رفيقـه الحـدّاد يـدعو الله ويبتهـل في الطـواف قائلا: اللهم اشـف الـدكتور عبـد الحلـيم عـويس، فـوكزه مولانـا وكـزة خفيفة قائلا: تحشَّم مع الله يا أخي، دكتور إيه وبتاع إيه؟!

قل: عبدك عبد الحليم عويس.

وأغلـب ظنـي أن كثيـرًا مـن زهـده الـذي بلـغ أوجـه في سِنِي حياتـه الأخيرة، اكتسبه من معاشرة شيخه عبدالسلام أبـي الفـضل ومـصاحبة الـشيخ أبـي الحـسن النـدوي– رحمـه الله– وغيـره مـن رمـوز الحركـة الإسـلامية في الهنـد، كمـا كـان للأسـتاذ أنـور الجنـدي بـالغ الأثـر، فقـد حكي– رحمه الله– أنه تلقىٰ درسًا في الزهد لم ينسه طيلـة حياتـه، ذلـك أن إحدىٰ الدور نشرت بعض كتب المفكـر الموسـوعي أنـور الجنـدي دون إذن مسبق منه، فساء ذلك الدكتور عويس، فقابل الأستاذ الجندي وأخبره بالأمر حتىٰ يتخذ الطرق القانونية التي تُعيد له حقوقه، فما كـان من الرجل إلا أن سأله عن اسم الدار وطلب منه أن يُبلِّغ شكره العميـق لهم بسبب نشر ما يكتب ووصوله إلىٰ القارئ.. يقول مولانا: فتعلمـت حينها أول درس حقيقي في الزهد.

***

ذهبت إليه ذات مرة في مجلة التبيان بالجمعيـة الـشرعية، فاسـتقبلني قائلا:

- تاكل إيه؟!
- أي حاجة يا أستاذنا
- تاكل أرغفة سِمين؟!

لم أدرْ حينها ما المقصود بهذا السِّمين، قلت مستفهمًا:

- نعم، سمين إيه؟!

- وحضرتك ما تعرفش السِّمين؟!

- لا والله، مش واخد بالي.

- طيب أنا هجيب، وأنت ابقىٰ شوفه براحتك.. وأرسل حينها من يأتي بأرغفة السمين للعاملين بالمجلة كلها من حسابه الخاص، وجلسنا نأكل ومعنا الأصدقاء السنوسي محمد وإسلام فرحات.

ظل الطعام مثار جدل لا ينقطع بيني وبينه، فالرجل يضغط عليَّ بكميات الطعام التي لا طاقة لي بها، وأنا مُقِلٌّ بطبيعة الحال، وكثيرًا ما كان يرىٰ ذلك عيبًا من عيوبي.

وعندما كنا في زيارة للسودان الشقيق دعانا وزير الدولة للثقافة علي مجوك، فبدأ الدكتور في تعريف الرجل بي– وتلك عادته أن يعرف مرافقه تعريفًا ضافيًا مهذبًا لا يخلو من المجاملة– فقال ما شاء الله له، ثم شفعه بقوله: ولكن للأمانة عنده عيب خطير.

تجمَّدت الدماء في عروقي، فنحن في قُطر غير القُطر.

ولكن الرجل– والحمد لله– كان أكرم مما تخيلت، فاستأنف قائلا: عيبه الوحيد أنه مُقِلٌ في الطعام، وكثيرًا ما يستنكف عن أكلِ العامة أمثالي.

ضحك الوزير وتنفستُ الصعداء!

***

كرم الرجل لا يُبارىٰ بحال من الأحوال، وإن قصائد لا أحصيها

دُبِّجت في هذا الكرم العويسي.. ولا عجب!

كانت هناك وليمة سنوية في قريته يقيمها لأعضاء رابطة الأدب الإسلامي وفيهم الأساتذة والشعراء والنُّقَّاد والقصَّاصون، أذكر علىٰ سبيل المثال: الدكتور عبد المنعم يونس، والدكتور سعد أبو الرضا، والدكتور صابر عبد الدايم، والأستاذ إبراهيم سعفان، والمهندس وحيد الدهشان، والأستاذ محمد فايد، والشاعرة محبوبة هارون، والشاعر النوبي الخلوق محيي الدين صالح، والصديقان الدكتور محمود خليل والكاتب محمد القوصي، وغيرهم كثير، ولا يُسمح لامرئ بالتخلف عن الوليمة ولو بعُذرٍ قاهرٍ.

في هذه الوليمة تُقدم أنواع الطعام واللحوم الفاخرة ما ظهر منها وما بطن، غير أن الضأن سيد الموقف، أضف إلىٰ ذلك ما سعىٰ علىٰ رجلين كالأوز، والبط، والدجاج، والحمام، وغير ذلك من أطايب الطعام..

كانت مناسبة لإلقاء أطرف القصائد وأكثرها فكاهة بعيدًا عن السياسة وتعقيداتها، ونظم الشاعر الراحل عبد الرازق الغول قصيدة عارض بها قول المتنبي مستهلها بقوله:

علىٰ قدرِ أهلِ الفضلِ تأتي (العزائمُ)

وتأتي علىٰ قدرِ الكرامِ (الولائِمُ)

وكرم الرجل حاتمي يصل إلىٰ درجة التبذير، فقد عشنا سنوات في بيته لم ينقطع عنه الضِّيفان يومًا، وما أسهل أن يحدِّثه أحد في الهاتف للاطمئنان عليه فيكون جوابه قاطعًا: إذا أردت الاطمئنان عليَّ فهلُمَّ

إليَّ، وبانتظارك الطعام لا نأكل حتىٰ تأتينا، وكثيرًا ما يتصل بالضيوف يجلبهم من داخل القاهرة وخارجها فرحًا بما يصنع.

وكم مرة استدعىٰ الكاتب جمال سلطان للغداء أو العشاء.. ولا تجدي توسلات الرجل للاعتذار أو حتىٰ لإرجاء الموعد لانشغاله بإنجاز العدد الجديد من صحيفة (المصريون)[1]!

كان لزوجته الثانية- بعد وفاة الأولىٰ- جهد لا ينقطع في إعداد الطعام ومعها الخادمة، بيد أن هذا الجهد لم يك كافيًا لاستيعاب الأعداد الغفيرة من قاصدي بيت الرجل بمدينة نصر وفيهم المصري والأجنبي، والأبيض والأسود، بل والأصفر أحيانًا.

بيت الرجل بمثابة جامعة إسلامية يفيء إليها كل هؤلاء.. من طلب منهم علمًا، ومن جاء يطلب عونًا.

كان الرجل (أكِّيلا) ولم يك (أَكُولا)..

يحتفي بالطعام احتفاءً شديدًا، وليس يصبر علىٰ جوع، والويل كل

---

(1) أشار سلطان إلىٰ ذلك في مقاله (في وداع عبدالحليم عويس) في صحيفة (المصريون) بتاريخ 15 ديسمبر 2012، كما أشار إلىٰ دعمه -رحمه الله- لصحيفته ماديًا؛ يقول: «الحوار السابق عادة ما كان يتصل «بدفعة» مالية جديدة يخرجها عبد الحليم عويس من حر ماله لدعم صحيفة (المصريون) الالكترونية، الآن أقول ذلك بعد أن أفضىٰ الرجل إلىٰ ربه، وانقطعت سبل المجاملات أو الرياء، وحقه علي أن أسجل أمام قراء (المصريون) أن هذا الرجل كان أحد أبرز رعاة موقع المصريون، وفي السنوات الأخيرة عندما اشتد به المرض وأحس بدنو الأجل فقسم ما رزقه الله من ثروة محدودة بين أبنائه، كان قد جعل لـ (المصريون) ـ ضمن مؤسسات أخرىٰ ـ نصيبًا من ذلك المال، فكان يعطي منه علىٰ فترات ، يسد به دينا تراكم علينا أو يعيننا في بعض شؤون العمل».

الويل لزوجته وخادمتها (أم أمل) وبديلتها (نَصْرَة) لو تأخر الطعام، أو أتاه باردًا؛ لأن بإمكانه إعادة الطبق الواحد لتسخينه عدة مرات.

والويل لي وللحداد إن كان ينتظرنا علىٰ الطعام ولم نصل بعد، فهاتفي الجوَّال لن يكف عن الرنين لحظة، ويأتي السؤال المعتاد: إنت وصلت فين دلوقتي؟! بسرعة يا أخي حرام عليك.

اتق الله! جَوْعَىٰ يا أخي والله، جَوْعَىٰ

***

في كل مكان يسكن فيه كانت له علاقات وطيدة مع المطاعم الكبرىٰ، حتىٰ إن صوته كان مميزًا لديهم.. وهكذا لم يبخل يومًا علىٰ ضيف له.

كان موقنًا تمام اليقين أن الكرم عبادة كالصوم والصلاة، تُعبِّر بشكل أو بآخر عن تعامل الإنسان مع مبدأ استخلافه، وكثيرًا ما كان يُردد: المالُ مالُ الله، إن شاء نَمَّاه وأَرْبَاه، وإن شاء ذهب به وأفقرَ صاحبه..

وعلىٰ الضيف القادم أيًا كان وضعه ومنصبه، أن يقبل بتناول الطعام مهما كانت درجة شِبَعه؛ لأنه سيُرغم حتمًا علىٰ إدخال الطعام علىٰ الطعام، ولن يُجدي معه نفعًا أن يحاول الاعتذار، وقد رأيت بعيني شخصياتٍ وقاماتٍ كبيرةً تُضطر إلىٰ تناول الطعام كما الطفل الذي أحسَّ بالشِّبَع ولم تنفعْه توسلاته إلىٰ أمَّه بكفِّ يدِها عن فمه.

ليس هذا فحسب، لكن الضيف حتمًا سيأتيه بعد ساعة سؤالٌ مُباغتٌ من أسفل النظارة الطبية لمولانا: ما جُعتش يا أخي؟!

فتأتيه الإجابة عندها طالبة العتق من رِقِّ الطعام: لا والله يا أستاذنا، إحنا لسَّه واكلين من ساعة.

كانت ديكتاتورية الرجل في إطعام الطعام لا تُوصف.

ديكتاتورية ما أحلاها!



معـــارك مـولانا



> **«وسيبقىٰ في كل عصر، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»**

ليست هذه معارك بالمعنىٰ الذي قد يتبادر إلىٰ ذهن القارئ الكريم، إنما هي خلافات فكرية، ومساجلات حياتية، اختلفت فيها وجهات النظر، كان يظن كل طرف من الأطراف أنه علىٰ صواب.

خلافات رأيتها جديرة بالعرض والتسجيل، ليس فقط لأنها تُظهر روحه الوثَّابة، وهمته العالية، وشجاعته الصادمة أحيانًا؛ لكنها تنقل جانبًا من حركة الحياة الفكرية والعلمية في عالمنا، كما تُقدِّم صورة حية لأدب الاختلاف بين النخبة الحقيقية الجديرة بالاحترام، وهي القيمة التي افتقدناها بعد حالة الانفلات الأخلاقي، وليس منطقيًا أن أذكر جانبًا من حياة الرجل، وأُغفل جانبًا آخر..

فسنرىٰ الرجل هنا مغاضبًا، كما رأيناه راضيًا..

***

وُلد الفتىٰ عويس معتدًا بنفسه بدرجة كبيرة، وحدَّد هدفه في الحياة باكرًا..

قرر أن يكون له شأن في معتركها، حتىٰ إنه وهو تلميذ صغير بالمعهد الديني الأزهري جلس في مقعد واحد مع زميل له يكبره

بسنوات بعد تكرر رسوبه، فنظر إليه زميله بحنق، وسأله مستنكرًا: ما الذي أجلسك بجانبي وأنت في نصف قامتي؟!

ردَّ عليه بسرعة بديهة: خيبتُك الثقيلةُ هي التي أجلستني بجانبك، فلو اجتهدت في دراستك ونجحت لما جلست هنا!

عندها غضب التلميذ من زميله (المغرور) وهمَّ بضربه لولا تدخل المدرس (محمد أبو جازية) الذي فضَّ اشتباكا محتملا، ثم سمع الصغير عبدالحليم وهو يتوعد زميله قائلا: والله لأنجحن بالمجموع الذي أريد، ولأدخلن الكلية التي أحبها، وسأحصل علىٰ الماجستير والدكتوراه بإذن الله ثم باجتهادي..

دهشَ المدرس من كلام الصغير، وقال له: لم الحَلِفُ يا عبدالحليم؟! اجتهد ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.. ولكن لا تُقسم.

ابتسم الصغير ابتسامة الواثق، وقال لأستاذه: سأفعل بأمر الله ولا أحنث.

ومرت الأيام والسنوات، وكان للصغير ما أراد.. وامتد العمر بالأستاذ ليرىٰ تلميذه علمًا من الأعلام ملء السمع والبصر، فكان يستمع إليه في المذياع ويشتري الصحف ليطالع مقالاته، وكان التلميذ يبر أستاذه برّا منقطع النظير ويذكر له فضله.. حاضرًا وغائبًا.

وقُدِّر لي أن ألتقي أحد أساتذته في بيته منذ سنوات، وللحق فقد احتفىٰ به مولانا أيَّمَا احتفاء، حتىٰ إن الرجل قد استشعر كثير حرجٍ لإطراء تلميذه وعبارات الشكر التي لم تنقطع.

***

وحـدث أن أحـد مـشايخ المعهـد الأزهـري- واسـمه الـشيخ عبدالفتاح علـم- تكلـم في نـدوةٍ عامـةٍ للطلاب بالمعهـد، فـصبَّ جامّ غضبه عليهم، مطالبًا إياهم أن ينهضوا بأنفسهم حتىٰ يكونـوا عوامـل بنـاء وتقـدم في مجتمعـاتهم، بيـد أن هـذا الكـلام لـم يكـن الـشاب عبـد الحليم ليمرره دون أن يعلِّق عليه، فطلب التعليق بعد انتهاء الـشيخ مـن كلمتـه فـأُذن لـه، فكـان ممـا قـال: «إن علـىٰ الأسـاتذة أيـضًا أن يقومـوا بـدورهم تجـاه الطـلاب وأن ينهـضوا بأنفـسهم أولا، فـإن القاعـدة إذا صـلحت صـلحت المنظومـة كلهـا»، فهـشَّ الأسـتاذ لكـلام التلميـذ، وطلب منه أن ينتظره عقـب النـدوة، وعنـدها طلـب منـه زيارتـه في بيتـه، واكتسب التلميذ شعاعًا جديدًا ينير حياته العلمية والعملية.

ويبـدو أن تلـك الـروح النقديـة الجمـوح قرَّبتـه مـن الأسـتاذ محمـد جلال كشك الكاتب الشجاع والفيلسوف صـاحب المؤلفـات العديـدة مثـل: (ودَخَلَـتْ الخيـلُ الأزهـر) و(كلمتـي للمغفلـين)، و(ثـورة يوليـو الأمريكيـة) ، فقـد كتـب أثنـاء دراسـته أو عقـب تخرُّجـه بقليـل مقـالا يـستدرك فيـه علـىٰ شـيء كتبـه كـشك في إحـدىٰ المجـلات، فوقـع الاستدراك من الرجل موقعا حَسَنًا رغم النقد الموجه لـه، وأخـذ يـسأل عـن هـذا الكاتـب المجهـول دون نتيجـة، حتـىٰ جـاء يـوم المواجهـة في مكانٍ ما، فبادره الشاب بالتحية وشرع في تعريفه بنفسه:

- أنا اسمي عبدالحليم عويس.

- الاسم ده مش غريب عليَّ!

ابتسم الشاب الصغير ابتسامته الساخرة المعتادة مع هزِّ رأسه:

- أنا اللي كتبت مقال للرد علىٰ مقالكم

تظاهر كشك بالغضب وهتف قائلا:

- وتكون مين إنت علشان ترد علىٰ مقالي؟!

- عبدٌ من عباد الله، وتلميذ من تلاميذك، والعلم رَحِمٌ بين أهله.

أُعجب كشك بمنطق الشاب الصغير فقرَّبه منه وأحبَّه، حتىٰ إنه من أوفده إلىٰ الكويت للعمل بها.. ودائمًا ما كان مولانا يذكره بقوله «العملاق محمد جلال كشك».

وأذكر أننا كنا في زيارة للكاتب أحمد رائف في مركز الزهراء للإعلام العربي، فطلب مولانا كمية كبيرة من كتب كشك التي نشرها المركز، وحملها الإنسان، ثم قمنا بتوزيعها علىٰ الأحباب، فقد كان حفيًا به وبذكره كثيرًا.

***

ومما يثير الضحك والأسىٰ معًا، أنه كان لمولانا جارٌ تولَّىٰ حقيبة وزارة التربية والتعليم في فترة من الفترات، وحدث أن أقامت الحكومة مهرجانًا رياضيًا، فما كان من الوزير الهُمام إلا أن تصابىٰ وارتدىٰ (الفانلة والشورت) لمؤازرة الطلاب في مهمتهم القومية، لكن ذلك لم يرُقْ لمولانا.

قابلَ الوزير مستهجنا فعلته وقال: لا أدري يا دكتور ماذا أضفتَ بخلعِ ملابسك واكتفائك منها بما يستر السوءة فقط؟!

هل بفعلتك هذه ستصل مصر إلىٰ قمة التقدم الحضاري؟!

وهل بخلع سِترِك سنبلغ ما لم نبلغه بها؟!

استقيموا يرحمكم الله.

مع الدكتور القرضاوي...

كنا في ليلة باردة مُشتيةٍ عام 2005 م عندما جاء الدكتور ومعه كتاب (تاريخنا المفترىٰ عليه)، تلقيته بسؤال معتاد: كتاب جديد ده؟!

قال: آه، وللشيخ القرضاوي كمان.. بينقدني فيه

أنا في نفسي: أوبًّا! استرها يارب..

أخذت أقلِّب الكتاب، فاسترعىٰ انتباهي بعض الصفحات المطوية فإذا عبارات قد خطَّ مولانا تحتها خطًّا باللون الأحمر القاني، وقرأت من بينها عبارة يقول فيها الدكتور القرضاوي: "وكم كنتُ أحب أن يكون أخونا الدكتور عويس في هذه الموضوعات التاريخية الشائكة: قاضيا محايدًا، بدل أن يجعل من نفسه محاميًا متحمسًا للدفاع عن موكله حيال خصومه، وفي غمرة الحماس والاندفاع يفقد الموضوعية والحياد".

كلام شديد...

والإشكالية إذًا حول بني أمية وحُكْم معاوية- رضي الله عنه- لم يُمهلني كثيرًا من الوقت، وسرعان ما طلب بعض المصادر التاريخية وشرع في إملائي، وانتهىٰ من الرد ودفع به إلىٰ الأستاذ جمال سلطان لنشره في مجلة (المنار الجديد).

كانت الوشائج بينه وبين الشيخ القرضاوي قويةً جدًا، فلقد تشاركا في إنشاء دار النشر المعروفة (دار الصحوة) قبل أن يتفرقا بعد ذلك، فضلا عن كونهما من المحلة الكبرىٰ التي ينتمي إليها كثير من الرموز مثل الإمام الهيتمي، والأبشيهي، ومن المحدثين الشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد عبد العليم العدوي، وقبل هذا كان شيخهما محمد الغزالي همزة وصل بينهما.

وعندما مرض الدكتور عويس واشتد عليه المرض كان الشيخ القرضاوي من زوَّاره في بيته بـ (مدينة نصر)، فسُرَّ الرجل بهذه الزيارة أيَّمَا سرور واحتفىٰ بمقدم الشيخ احتفاءً تاريخيًا.

مع الد ك تور جابر قميحة...

أما خصومته مع الدكتور جابر قميحة فقد سار بها الرُّكبان، لا سيما في رابطة الأدب الإسلامي، ففي أحد المؤتمرات التي نظمتها الرابطة حدث خلاف لم أحضره، ولكني رجعت إلىٰ الشاعر محمد فايد الذي كان شاهد عيانٍ علىٰ الحدَث؛ فكتبَ إليَّ ما نصُّه: " أثناء إحدىٰ جلسات مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة التي كان يديرها الدكتور عبد الحليم، وأثناء إلقاء الدكتور جابر قصيدته رأىٰ الدكتور عويس فيها تجاوزًا في حق البعض، وخروجًا علىٰ منهج الرابطة في عدم الخوض في الأمور السياسية، فانفعل الدكتور قميحة... ومضت عدة أعوام انقطع فيها الدكتور قميحة عن الرابطة، والنشر في مجلتها، وصارت قطيعة طويلة بين الرجلين حتىٰ جاء يوم الثالث من نوفمبر سنة 2010م، ودُعي الرجلان إلىٰ مناسبة تكريم العلَّامة الدكتور محمد

عمارة، وهناك لمح الدكتور عويس الـدكتور قميحـة قادمًـا فأسـرع إليـه يغالـب مرضه الشديد، وتلقَّاه بعبـارات الاعتـذار رغـم إيمانـه بأنـه علىٰ صوابٍ في هذا الخلاف، فتعانقا في مشهد مهيـب رقَّ لـه الحاضـرون في القاعة حتىٰ دمعت أعين البعض ومنهم الـصديق محمـد الحـداد الـذي لم يتمالك نفسه من جلال الموقف.

رأىٰ الناس كلا الرجلين يعتذر إلىٰ الآخر، فلم يدروا أيهما أخطأ في حق الآخر، لكنه الأدب المتبادل بين العلماء!

مع الدكتور جعفر عبدالسلام...

كما كانت له خصومة مع الدكتور جعفر عبدالسلام- الأمـين العـام لرابطة الجامعـات الإسـلامية ونائـب رئـيس جامعـة الأزهـر الأسـبق-، ويبدو أن منافسةً محمومة بدأت بينهما بعد انتقال الرابطة مـن المغـرب إلىٰ مصر أدَّت إلـىٰ الاختلاف في وجهـات النظـر، حيـث كـان الـدكتور عويس أسبق علاقة برابطة الجامعـات عنـدما كانـت في المغـرب، بينمـا ظهر الدكتور جعفر في الصورة بعد ترشيح الـدكتور عبـد الفتـاح الـشيخ له بتولي الأمانـة العامـة، والحقيقـة أن لائحـة الرابطـة تـشترط أن يكـون أمينهـا العـام بدرجـة نائـب رئـيس جامعـة، وهـو الـشرط الـذي يفتقـده الدكتور عويس.

وربما شهد الخلاف تطورًا نوعيًا بعد عملي في الرابطة بترشـيح مـن مولانـا- كمـا ذكـرتُ- ممـا جعـل أحـد الـزملاء ينـصحني بـألا أجهـر بعلاقتـي بالـدكتور عـويس مكتفيًـا بـأن تكـون سـرية بعيـدة عـن علـم الـدكتور جعفـر حتـىٰ لا يغـضب الأخيـر، فمـا كـان منـي إلا أن دخلـتُ

فأبلغتُهُ سـلامًا خاصًـا مـن الـدكتور عـويس الـذي لـم يَجُـل بخـاطره أن يُرسل سلامًا إلىٰ الرجل من الأصل.

كان وَقْعُ السلام علىٰ الرجل غريبًا، فهذا أمر لم يحدث في سنوات القطيعة بينهمـا، ولـذا كـان لابـد لـه مـن سـؤالي: أيـن رأيتـه؟! قلـت: في رابطـة الأدب الإسـلامي، طبعًـا لـم أقـل إنـني أَبِيـتُ عنـده بـشكلٍ شـبه يومي.

وهكذا أفصحت عن علاقتي بالرجل دون خجل، وحتىٰ لا أُتهـم في قَابِـل الأيـام بالتـدليس أو المواربـة، وهـو مـا كـان مثـارَ إعجـابٍ مـن الدكتور جعفر الذي أحـبَّ صـراحتي.. وكثيـرًا مـا كـان يُحـدِّث نـدماءه عن هذه الصراحة التي تـصل إلـىٰ درجـة التهـور، بـل إن نقاشًـا في إطـار العمل نشب بيننا، ففوجئت به يقول: والله يا أخي عنتريتـك زي عنتريـة عبدالحليم عويس.

وشاء الله أن أكون سببًا في تلطيـف الأمـور بينهمـا ووَصْـلِ بعـضِ مـا انقطع بعد ذلك، فيوم حضرا عقد زواجي بالبحيرة جلس كلَ منهمـا في ناحية من المسجد بعد سلامٍ فـاترٍ نوعًـا مـا، وألقـىٰ كـلٌ منهمـا كلمـة في الحضور أشـاد فيهـا بمناقـب العبـد لله، وكـالَ كـل منهمـا لـىٰ إطـراءً لـم أعتده من أيهما لا سيما الدكتور جعفر الذي يـرىٰ أن إطـراء المـوظفين فيه فسادهم.

ظللت بعدها أبلغ هذا سـلامًا مُلفَّقـا، وذاك سـلامًا مـزوَّرًا حتـىٰ تقاربـا بعد جفاءٍ، وذهب الدكتور عويس ليعزي الدكتور جعفـر في وفـاة زوجتـه، ومَرِضَ الأول فصحبت الثاني لعيادته بمستشفىٰ بضاحية مصر الجديدة..

وهكذا إلىٰ أن تصالحا بعد قطيعة عرفتها الأوساط العلمية زمنا..

معركته مع التدخين...

أما معركته هذه فمن نوع آخر، كان مولانا يكره التدخين والمدخِّنين بقدرٍ لا يتخيله أحد، كما كان يُفتي بحرمته، وقد حُكي لي أن أحد ولديه - وكان صغيرًا - أراد أن يخوض تجربة التدخين، فأصدر مولانا فرمانًا ساميًا يخيِّره بين الإقلاع عن هذا الأمر أو الحرمان من الميراث، وقال: إن هذا المال جمعتُهُ مِن حِلٍّ ولن يُنفقَ إلا في حِلٍّ..

وأذكر أنه رأىٰ حارس العقار الذي كان يقيم به في الهرم مدخنًا، فناداه قائلا: إما أن تتوب إلىٰ الله وتُقلع عن التدخين، وإلا فهناك مقاطعة اقتصادية كبيرة، نعم تأخذ أجر الحراسة ولكن لا تنتظر شيئًا آخر، وبالفعل أصدر الدكتور - رحمه الله - توجيهاته إلىٰ زوجته - رحمها الله - بألا تستعين هي الأخرىٰ بزوجة الحارس في الأعمال المنزلية، علىٰ أن تستجلب إحداهن من العمارات المجاورة عند الحاجة إليها.. وظلَّ هكذا علىٰ رأيه حتىٰ أقلع الرجل، إنْ مُضطرًا، وإنْ مُقتنعًا، أو حتىٰ متظاهرًا بهذا.

ومنذ سنوات كنَّا سويا في مؤتمر من المؤتمرات فإذا به يمرق كالسهم في اتجاه أحد الأساتذة بجامعة الأزهر - وكان يُدخِّن بين الجلستين - وقفت أترقب الموقف ولسان حالي يقول: استرها يارب..

كان الرجل مُسنًا محدودب الظهر تبدو عليه علامات الشيخوخة

كما تبدو علىٰ أسنانه آثار التدخين التي تراكمت لتمنح أسنانه طبقة كقطع الليل المظلم.. وقف مولانا يتحدث مع الرجل، وفهمتُ أنه لا تُوجد بينهما معرفة سابقة..

المهم أن الدكتور ظل يتحدث مع الرجل عن التدخين وآثاره الصحية السيئة وكذلك باعتبار التدخين تهمة تنقص من مروءة صاحبها.

وقف الرجل يستمع إلىٰ مولانا دون كلل أو ملل..وأنا أنتظر المواجهة بينهما.. وكانت المفاجأة أن الرجل ألقىٰ بسيجارته مكتفيًا بهز رأسه إقرارًا.. سلَّم عليه الدكتور بحرارة وانصرفنا..

ومرت نحو سنة فإذا بلقاء يجمع الرجلين في فاعلية من الفعاليات، فهرول الرجل إليه ليُذكِّره بنفسه مبشِّرًا إياه بأنه قد أقلع عن التدخين تمامًا منذ ألقىٰ السيجارة أمامه..

استطار مولانا فرحًا وأصرَّ علىٰ أن يدعو الرجل إلىٰ غداء فاخر- وتلك عادته- في أحد المطاعم الكبرىٰ غير أن الرجل اعتذر لارتباطه بدعوة مسبقة.

وقريب من ذلك أني صحبته مرة لصلاة الجمعة بأحد المساجد بمدينة نصر-و كان حينها قد وصل إلىٰ مرحلة متأخرة بعدما تآمر عليه مرض الكبد- وعقب خروجنا فوجئت به يشير إلىٰ أحد الواقفين ويطلب مني أن أصحبه إلىٰ حيث يقف، نظرت فرأيت الرجل يمسك سجادة الصلاة بيسراه، في يمينه سيجارة!

فهمت أنه سيحدثه في أمر التدخين، فرجوته ألا يفعل، فلم يكن

حينها يقوىٰ علىٰ مجرد الوقوف، ولكنه كان ديكتاتوريًا كعادته، فتلقَّىٰ الرجل المدخِّن من التقريع ما تنوء به شم الجبال وزاد الطين بلة أنه قدَّم نفسه مفتخرًا: فلان الفلاني أستاذ بجامعة الأزهر..

إلىٰ هذا الحد كره الرجل التدخين والمدخنين.

***

إجمالا.. فقد تركت شخصية الرجل المعتدة بذاتها والواثقة من حجتها أثرًا بليغًا في علاقاته بمن حوله، وربما تسببت في خصومات عِدّة، كما تركت بعض معاركه ومناوشاته ندوبًا في شبكة علاقاته الاجتماعية، لكنها في مجملها كانت ندوبًا حميدة سهلة الذوبان عند أول لقاء وفي أقرب مناسبة.

فما كان لقلبه الطيب وطبعه النبيل وروحه السمحة أن تسيطر عليه الخصومة أو يستبد به الشطط، ولمولانا في ذلك مواقف عديدة، تجلت فيها عذوبة نفسه ورقة فؤاده.

رحمك الله يا مولاي.

لم أر أصفىٰ منك قلبًا، ولا أنقىٰ منك سَرِيرَةً.



عريسٌ رغم أنفي (أ)



«سيبك من المثل بتاع امشي في جنازة ولا تمشيش في جوازة.. أنا شخصيًا بمشي في الاتنين! »

رنَّ الهاتف رنات متلاحقة ارتجَّت لها الشّقَّة..

في المطبخ كنت أعد صينية البطاطس بالفراخ.. الطعام الرسمي والمفضل لي في ذلك الوقت من حياة العزوبية أو العذوبة..

لا أحتاج إلىٰ كثرة ذكاء لأدرك أن المتصل هو مولانا.. فدأبه الاتصال حتىٰ يضجَّ الهاتف ويضيق.. وعندها تكونُ بين خيارين كلاهما أن ترد.

- السلام عليكم يا أخي.. اسمي عبد الحليم عويس.

- الاسم ده مش غريب عليَّ.. مرحبًا

- البس وتعالىٰ حالا

- طيب يا أستاذنا لمَّا أخلص الأكل اللي في إيدي

- هاته وتعالىٰ

- طيب والشباب المسكين اللي معايا في الشقة ياكلوا إيه؟! دول ما بيصدقوا أكون موجود علشان أعملهم أكل كويس

- هاتهم معاك يا أخي- والله- وأنا أجيب لهم أحسن أكل.. بس ياكلوا وينتشروا في الأرض، علشان رايحين مشوار..

- فين يا أستاذنا؟!

- لما تيجي هقولك

لم يكن أمامي سوىٰ السمع والطاعة.. انتهيت من إعداد الصينية.. تركت طهي الأرز للصديق علاء مؤمن أو للرائع محمد شعبان.

علاء أكثر إجادة في عمل الأرز.. أما محمد– سامحه الله– فكان يضع كل ما في المطبخ كخلطة علىٰ الأرز: بسلة، جزر، بطاطس.. وأشياء أخرىٰ كنا نسأل عنها فلا نجد لها جوابًا.. ولذا كنتُ أنصح الشباب ألا يسألوا، وطالما قلت لهم: (لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم)!

انطلقت إلىٰ مولانا، فما رآني حتىٰ صاح: إيه اللي أنت لابسه ده يا أخي؟!

- تي شيرت وبنطلون يا أستاذنا

- ما أنا عارف إنه تي شيرت وبنطلون.. ما أنت كل يوم بتلبس بدلة اشمعنىٰ النهاردة يعني!

- الحر يا مولانا

- خلاص.. البس البدلة وتعالىٰ

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. طيب وما له اللبس ده؟! وإحنا رايحين فين؟

- رايحين نشوف عروسة يا أخي

وهنا تساءلت بمكر:

- لمين؟!

- ليَّا أنا يا أخي! رَدَّ بحدة..

- طيب والحاجة؟!

- يا أخي اتق الله، عروسة لك إنت

- بس أنا مش هتجوز دلوقتي.. ولو هتجوز مش هتكون من القاهرة.. اعفيني من الأمر ده

- الناس في انتظارنا..خد تاكسي، والبس بدلتك، وتعالىٰ بعد ربع ساعة

لم يكن بُدٌّ ولا مفرَّ من النزول علىٰ رأيه، لكن ليس بعد ربع ساعة كما كان يأمل دائمًا، فقد كان من عادته أن يتصل بي من القاهرة وأنا في البحيرة فيطلب مني الحضور بعد نصف ساعة- إي وربي-، وربما اتصل بي من العجوزة طالبًا مني أن أهرع من مدينة نصر في خلال خمس دقائق..

هكذا كانت حياته قائمة علىٰ فرضية خلو الشوارع من المارَّة والسيارات علىٰ حدٍ سواء!

المهم أني بدأت معه رحلة البحث عن عروس..

كان معنيًا بتزويج الشباب.. ولم يك يجد أدنىٰ غضاضة في اصطحاب أحد تلاميذه لرؤية عروس.. كان يقول: سيبك من المثل بتاع امشي في جنازة ولا تمشيش في جوازة، أنا شخصيًا بمشي في الاتنين»

لم أكن وقتها مستعدًا للزواج.. لا نفسيًا ولا ماديًا.. وراتبي لا

يكفي.. ولولا أن الوالد– متَّعه الله– بالعافية كان يضع لي بعض النقـود في الملابس دون علمي، فضلا عن بعض مقالاتي، لكنتُ من الجالسين علىٰ باب السيدة!

ركبنا السيارة.. عبثًا حاولت إثناءه عن أمـر العـروس دون جـدوىٰ.. ودخل في نوبة من اللوم والتقريع:

- مش قلت لك تتعلم السواقة علشان تساعدني.. بدل مـا حـضرتك قاعد كده وأنا سايق!

- والله ده محتاج استعداد فطري.. وأنا لا نية عندي لقيادة سيارة

- يا أخي، السواقة يستوي فيها المتعلم والجاهـل، لا تحتـاج إلـىٰ ذكاء

كانـت العـروس تـسكن في منطقـة راقيـة بالقـاهرة، وهـو مـا جعلنـي أتساءل:

- ودي حضرتك هتقعد في البلد عندنا إن شاء الله؟!

- طبعًا.. طبعًا..

- ما شاء الله من القاهرة للفلاحين.. دي مطيعة بقىٰ!

- جدًا.. وبنت ناس طيبين

لم أجد فائدة من النقاش في ظل ديكتاتوريته التي أحببتها

رأيت العروس..

لم تكن تصلح لي أو أصلح لهـا.. فـضلا عـن عـدم اقتنـاعي بالمبـدأ مـن الأساس؛ لأن من نشأت هذه النشأة لا يمكن لها أن تقيم في الفلاحين.

شكرتُ لمولانا حسن الاهتمام.. تعللت بأنني غير مرتاح لها.. عرض عليَّ الذهاب ثانية والجلوس معها.. فربما بدا لي منها ما رغَّبَني فيها.. قلت له:

- إديني إيدك أبوسها يا مولانا.. بلاش الله يكرمك، كفاية كده.

- خلاص يا أخي، براحتك.. أنت وشأنك.. ولن أتدخل ثانية في هذا الأمر ولو عنَّسْتَ!

حمدتُ الله في سريرتي، وأثنيت عليه بما هو أهله.. أخيرًا سأكون حرًا طليقًا!

***

لم تمر عدة أيام حتىٰ فاجأني قائلا: غدًا سنسافر إلىٰ إحدىٰ المدن..

لم أسأل كثيرًا.. كنت أتوقع أي شيء إلا أن يُعيد الكَرَّة ويُرشح لي عروسًا.

قطعنا الكيلومترات نضرب أكباد السيارة.. البرودة تنخر في عظامي الهشَّة.. والمطر يتساقط بغزارة..لم تُفلح ماسحاتُ زجاج السيارة في ملاحقة الماء المنهمر.. دخلنا في مرحلة انعدام الرؤية..

ها نحن نصل إلىٰ مقصدنا.. أصحاب المنزل في انتظارنا.. بَدَوا علىٰ أحرٍّ من الشوربة التي توسَّطت المائدة.

احتفوا بنا بشكل مبالغ فيه..

كان الدكتور قد اصطحب معه علبة حلوىٰ فاخرة.. حملتها أنا..

وهذه من المرات القليلة التي يسمح لي فيها بحمل أحد أغراضه.. ما كان ليوافق إلا إذا كان يحمل هو الآخر شيئًا..

وهنا كانت المفاجأة، قال مولانا: الأستاذ وليد جاب الهدية دي معاه.

دارت بي الأرض دورتها.. وبلغ مني الغيظ مبلغه، فشهقت شهقة كادت تنفجر لها رئتاي..

هذا معناه أن عروسًا تنتظرني، تبًا للزواج!

إلىٰ المائدة جلسنا مع والد العروس وسط ترحيب متكرر.. اتفضل حضرتك.. كُلْ من اللحمة دي، وحتة البطة دي، والكفتة ما أكلتش منها، ويبدو المحشي مش عاجبك..

كنت آكل الطعام كالمضطر إلىٰ الميتة.. أحسست بمعدتي الصغيرة تتقلص من الغضب، ألم يعدني الدكتور ألا يتدخل في أمر زواجي؟! فلِم يعيد الكَرَّة؟!

أدركَ بذكائه الحادِّ عندها شدة غضبي..

كعادته تحدَّث عني كأنني عباس العقاد أو مصطفىٰ صادق الرافعي.. أما أنا فوددت لو أقول لهم: هذا من مبالغات أستاذنا، أنا راتبي لا يكفي المواصلات، ولا أفكر في الزواج الآن!! ولا أمل يُرتجىٰ من ورائي.

لكني استعذت بالله في النهاية.

انتهينا من الطعام.. وطلب سيدنا من الأب وربما الأم- لا أذكر-

منحني فرصة لرؤية العروس والجلوس معها، فذلك أحرىٰ أنْ يُؤدم بيننا

ياللطامَّة!

كما توقعت، لم تختلف هذه العروس عن سابقتها.. مؤدبة.. خجولة.. أما والدتها فسيدة مهذبة فاضلة.. لم يعبها سوىٰ حديثها معي في التفاصيل.. كأني ذهبت للاتفاق وليس للرؤية.. لكن للأمانة لم تسألني عن موعد الزواج.

قدمت العروس الحلوىٰ.. أكلت بعض الشظايا..

ألحَّت أُمُها.. اعتذرتُ لكوني لا أُحبها كثيرًا.

قامت الأم فأحضرت علبة شيكولاتة من الحجم العائلي.. وضعتها بين يدي فشكرت لها صنيعها..

لم أَمُدّ يدي إليها.. أَكره الشيكولاته كثيرًا.. والآن زادت كراهيتي لها أكثر فأكثر.

أعطتني واحدة.. أكلتها مضطرًا أيضًا..

ألحَّت في أُخرىٰ.. اعتذرتُ بشدَّةٍ: والله أنا مش بآكل سكريات كتير.

نظرتْ الأُمُّ إلىٰ ابنتها، والبنت إلىٰ أُمِّها بتوجس.. يبدو أنهما توهمتا أني مريض بداء (السُّكَري) والعياذ بالله.

فليكن ذلك..

أفضل من الزواج بالإكراه!

عريس رغم أنفي (ب)

«حوار فطري ثنائي تقتضيه طبيعة الحياة التي فطرها الله عليها، إنه حب خفي ووئام وتكامل تحققه الحياة بأسلوبها المتنوع»

ما إن خرجنا من بيت العروس- التي صُحبت إليها قسرًا- حتىٰ ابتدرني بالسؤال المعتاد:

- إيه الأخبار يا أخي؟! والله ناس طيبين، والبنت ما شاء الله عليها: أدب، ودين، وحَسَب، ونَسَب، و....

- فعلا يا أستاذنا ناس محترمين جدًا، وواضح إن البنت ديِّنة وخَلُوقة

- خلاص يا أخي علىٰ بركة الله

التقط مولانا التليفون وهمَّ بالاتصال، ففزعتُ قائلا:

- إيه ده! حضرتك هتتصل بأبوها؟!

- أيوه يا أخي

- يا سيدي.. والله، ما هكذا تُورد الإبل

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إبل إيه وغنم إيه؟! إنت هتتجوز من قُريش؟! وبعدين الجمال مش كل حاجة

- بصراحة البنت كويسة، لكنها لا تصلح لي، ولا أصلح لها.. والحمد لله حضرتك اعترفت إنها مش جميلة.. وأنا عايز واحدة

جميلة، وباختصار: حَدّ الكِفَاية لا الكَفَاف.

- خلاص يا أخي.. من اليوم فصاعدًا لا شأن لي بأمر زواجك.. فاختياراتي لا تعجبك

- العفو يا مولانا، لا حُرمنا مشورتكم.

****

كنت علىٰ درجة كبيرة من السذاجة عندما تصورتُ أنه سينأىٰ بنفسه عن أمر زواجي- كما قال- فما هي إلا أيام حتىٰ وجدته يعود سيرته الأولىٰ:

- اعمل حسابك بكره يا أخي رايحين مشوار بالليل.

- فين يا مولانا؟!

- مشوار بسيط، هنشوف عروسة.. والله بنت ناس أفاضل وجميلة كمان زي ما أنت عايز، يعني لا حجة لك.

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنت بتسترجع يا أخي؟!

- يا أستاذنا صدقني أنا لن أتزوج الآن، ولن أتزوج بهذه الطريقة

- قوم يا أخي هات لي كتاب المقدمة– يقصد مقدمة ابن خلدون- عايزه

- يا مولانا خلينا في مقدمة الزواج دي

لم يجبني..

التقط أجندته الحمراء التي كانت تعج بأرقام الهواتف ليجري اتصالا:

- السلام عليكم.. مين؟ العروسة؟!

- ....

- إيه أخبارك؟

- ....

- إنتِ عارفة إني جايب لك عريس بكره

كان مولانا يتحدث في التليفون، بينما كان الغيظ ينهش أمعائي ويعتصر فؤادي.. كنتُ أسمعُ صرير أسناني.. وأُحسُّ بضغطي يرتفع شيئًا فشيئا.

يا مثبت العقل والدين يارب!

من الممكن أن أُسمي المكالمة (في مناقب العريس)!

لم يكن أمامي إلا الرضوخ والإذعان معًا.. فحبي للرجل لا أعدل به أحدًا إلا أبي– بارك الله في عمره–.. لمستُ منه حرصًا عليَّ كأحد أبنائه الثلاثة.. وشاهد جميع من حوله حبَّه لي، وكثيرًا ما كان يُسأل عن هذا الأمر.. وعندها تكون إجابته: هو عندي بمنزلة أولادي.. ولكنه عصبيٌ، صلب الرأي، لا ينزل علىٰ مشورتي.. تمامًا كأنس.

لما كان الغدُ ارتديتُ طبقات من الملابس بعضها فوق بعض.. كان الجو باردًا جدًا.. لكن كان عليَّ أن أتخلص مما فوق البدلة من ملابس فأبدو بالبدلة ورابطة العنق..

هكذا يريدني مولانا الذي لم أره إلا بكامل زِيِّه، حتىٰ في المصيف والمتنزهات.

وبينه وبين الأحذية ذات الأربطة ثأرٌ ظل ممتدًا حتىٰ مات.. إنه يضيق ذرعًا بفكِّها وربطها كما لو كانت سِحْرًا وشعوذة.. وطالما قال لي منتقدًا: يا أخي- والله- بتُشْقِي نفسك بالأحذية دي، الأمر أسرع من هذا.

ثمة أمرٌ آخر كان مولانا يراه من تمام الأناقة..

إنها ساعة اليد!

لطالما سألني: فين ساعتك؟! والردُّ مُعتاد مني: مش بالبس ساعات يا مولانا.. أكتفي بالمحمول.

دخلنا منزل العروس..

نفس الحفاوة.. نفس الكلام الذي كان أستاذنا يقوله في العريس.. سيناريو متكرر.. فقط يتغير المكان ويبقىٰ السيناريو بكامل مشاهده.

لم يكن هناك طعام.. فقد اشترطت عليه ذلك؛ حتىٰ لا يُسبب لي حَرَجًا.. فلا أسمح لنفسي أن أذهب إلىٰ عروس لن أتزوجها وآكل في بيتها.

ما عرفته فيما بعد كان جديرًا بالدهشة!

لقد قال لي مولانا ذات مرة: والله يا أخي إنت ظاهرة عجيبة! كل ما تروح لواحدة ربنا يكرمها وتتخطب بعد مدة يسيرة! إيه رأيك نخلِّيك مشروع قومي لتزويج العوانس؟!

وضحك- رحمه الله- حتىٰ سعل كما عادته.

المهم، كان لابد لي من التخلص من العروس بشكلٍ أكثر لياقة

ولباقة.. واهتديتُ إلىٰ حيلة– سامحني الله– رأيتُ فيها الخلاص رغم أنها كانت لطيفة، وعلىٰ قدر معقول من الجمال قياسًا بسابقيها..

فماذا لو أن العروس هي مَنْ رفضتني؟!

أظن أن الأمر لن يُسبب لي حَرَجًا، وعندها قد تكون المرة الأخيرة التي يتدخل فيها مولانا في أمر زواجي.

دعاني للجلوس مع العروس علىٰ انفراد لنتجاذب أطراف الحديث..

كنتُ صادمًا جدًا

تحدثتُ في أمور أصابتها بالكآبة.. ليس لموضوعاتها فقط؛ وإنما لأن الوقت لم يكن مناسبًا لها.

العريس غالبًا ما يُبدي في المرة الأولىٰ– علىٰ الأقل– تلطفًا، ويجتهد في إخفاء معايبه، فيبدو صحابيًا متسللا إلىٰ زماننا حتىٰ يأنس منها قبولا.. ويُمكنه بعدها أن يُحدِّثَها في أي أمرٍ شاء..

من هذه الأسئلة علىٰ سبيل المثال:

ما رأيك في النقاب؟! مدىٰ علاقتك بالتليفزيون؟! هل بتسمعي أغاني؟! يا ترىٰ بتحبي القراءة؟!

وأسئلة أخرىٰ كانت كفيلة بإعطاء فكرة واحدة عني: العريس ده متشدد جدًا ومحبِّكها قوي..

خرجتُ سعيدًا بما صنعتُ.. كتمتُ قهقهة منتصرٍ في ساحة المعركة.. كانت خطة من نفث الشياطين– والعياذ بالله–!

انقضتْ ثلاثةُ أيام والـدكتور لا يُكلمنـي في شـيء.. لـم يـسألني عـن رأيـي في العـروس ولًا في أهلهـا كمـا كـان يفعـل في كـل مـرة، يبـدو أن خطتي قد نجحت.

مرت عدة أيام ثم بدا لمولانا أن يسألني:

- ما لقيتش عروسة يا أخي؟!

- لا يا أستاذنا.

- طيب.. بص فيه...

قاطعته متخابثًا: طيب والعروسة اللي فاتت يا أستاذنا؟!

- يبدو إن مفيش نصيب يا أخي.

طار قلبي فرحًا.. لكن كان لابد من إبداء بعض الأسف، قلت:

- الحمد لله.

- بتقول حاجة؟!

- بقـول الحمـد لله الـذي لا يُحمـد علىٰ مكـروه سـواه يـا أسـتاذنا.. وبصراحة الموضوع ده سبب لي حرج نفسي بالغ.

- ولا يهمَّك.. فيه غيرها كتير.

- والله يا أستاذنا لو نسيب الموضوع شوية

- هتتخطب لوحدك يعني؟! ماشي يا أخي.

يبدو أنني تفاءلت مرة أخرىٰ أكثر مما يجب.. ظننت أنـه سينـصرف عن أمر زواجي بلا رجعة.. كيف لا وقد رفضتني العروس؟!

نعـم.. هـي لـم تُفـصح عـن التفاصـيل مكتفيـة بـالرفض دون إبـداء

أسباب، لكن لم تمرُّ عدة أيام، حتىٰ أفصحت لوالدتها عن سبب رفضها للعريس.

العريس ثقيل الظلِّ، ومتشددٌ جدًا، وغير اجتماعي.

نُقلت الأسباب متأخرة إلىٰ مولانا.. فاستنكرها، ونفىٰ التهم إجمالا وتفصيلا.. واكتفىٰ بالقول: هو شاب كويس، ومش متزمِّت زي ما بتقول البنت، وعلىٰ العموم بكره أجوِّزه أحسن منها.

كارثة!

لقد عاد مولانا ليستأنف رحلة الشقاء.. أو رحلة البحث عن عروسٍ!

****

علىٰ غير عادتي كنتُ في القاهرة يوم الجمعة.. لم أسافر هذا الأسبوع إلىٰ البلدة.. خلدت إلىٰ النوم ولم أستيقظ إلا علىٰ جرس التليفون..

- أيوه يا أخي تعالىٰ بسرعة عند الأتراك.. مستنيك علىٰ الإفطار

- خير يا أستاذنا؟ مش ممكن آجي لحضرتك علىٰ صلاة الجمعة؟

- بقولك في انتظارك حالا.. هات تاكسي علىٰ حسابي، وتعالىٰ بسرعة عايزك في أمر مهم

بعد نحو نصف ساعة كنتُ عند الأتراك.. ومع ذلك قال جملته المعروفة:

- يا أخي اتق الله.. اتأخرت ليه كده؟! كل ده جاي في الطريق؟!

اقعد بسرعة كُلْ علشان هتروح مشوار

- فين يا أستاذنا؟

- مشوار يا أخي.. كُلْ مربىٰ التُّوت دي هتعجبك

أكلتُ في لحظات.. وجلستُ بانتظار الشاي التركي الذي يغسل المعدة.. يُصنع فىٰ بَرَّادين يعلو أحدهما الآخر: سُفلي يُوضع فيه الماء ليغلي، وعُلوي يُوضع فيه الشاىٰ مع قليل من الماء ليغلي علىٰ البخار المتصاعد من البراد السفلي مما يجعله محتفظًا بنكهته الطيبة..

لم يسمح لي مولانا بالبقاء حتىٰ يغلي الشاي، فخرجت أغلي...

أعطاني مظروفًا مغلقًا قال إن به بعض الأوراق المهمة.. طلب مني توصيلها إلىٰ أحد أصدقائه الذين كنتُ أعرفهم.

توجهت إلىٰ الرجل لا ألوي علىٰ شيء.. استقبلتني الخادمة فأجلستني في الاستقبال حتىٰ يحضر الرجل..

مر الوقت بطيئًا.. أشرفت علىٰ الأربعين دقيقة دون أن يخرج صاحب المنزل..

لم يقطعها إلا كوب من الشاي الساخن.

تذكرت شاي الأتراك بأسىً، وتجرعت بأسىً أشدّ الشاي الذي بيدي، وأنا لا أكاد أسيغه..

سقىٰ الله هذه الأيام.



عريس رغم أنفي (ج)



> «إنها سفينة واحدة لا تحتمل حدة الصراع، وإنما الذي تحتمله هي هذه الزوجية المتحاورة المتنوعة المتكاملة»

لم يكن هناك ما أفعله سوىٰ إمعان النظر في محتويات المكان.. فليس ثمة طريقة أخرىٰ لطرد الملل الذي سيطر علىٰ نفسي وأصابني بالضيق..

ساعة أنتظر بين اللحظة والأخرىٰ قدوم الرجل.. لا أدري لِمَ لَمْ يخرج حتىٰ اللحظة؟!

ربما حبسه حابس!

تحرك مقبض الباب الخارجي فدهشت، ألم يكن الرجل بالمنزل؟!

علىٰ كل لست مسئولا عن مكانه، ولا عن جهة قدومه، لم يكن الرجل.. إنها امرأة أو بنت.. شكَّ الرائي، ألقتْ السلام، ودلفت إلىٰ الحرملك، كان طبيعيًا ألا أنظر إليها.

أبوها يتبوأ وظيفة مرموقة جدًا.. وهو ثريٌّ.. يملك شركة خاصة..

ظهر الرجل.. كان جمَّ الأدب والخلق.. رأيته قبل ذلك كثيرًا.. لم يكن يعرفني كما أعرفه.. وهذا هو الطبيعي.

رحَّب بي الرجل ترحيبًا شديدًا.. ودار حديث أذكر منه جانبًا:

- الدكتور عبد الحليم بيشكر فيك جدًا.. واضح إنه بيحبك

- ربنا يبارك في حضرتك يا أفندم.. الدكتور يحب كل الناس.. وهذا من حسن أخلاقه ونبله.

قلتُ في نفسي: وما الذي يجعل مولانا يتحدث عني إلىٰ رجل جئت أسلمه رسالة؟! كنت أتوقع أي شيء إلا أن أكون مبعوثًا كعريس، لا سيما أن العروس الأخيرة قد سببت حرجًا لمولانا برفضها لي- كما يتخيل رحمه الله- لم أجد إجابة، وتوالت الأسئلة من قبيل: مؤهلك إيه؟ وشغَّال فين؟ ومنين أصلا؟!

لكن سؤالا أغرب طرق أذني..

- إنت عضو في أندية ولا حاجة؟!

- أندية إيه يا أفندم؟!

- يعني الصيد، الأهلي، الزمالك، الزهور؟!

كتمت ضحكة كادت تنفلت.. هممت بالقول: أنا عضو في مركز شباب شنديد المطور، لكني استعذت بالله من الشيطان الرجيم.

طالت الجلسة قليلا.. كأنني ما جئت إلا للإجابة علىٰ أسئلة الرجل..

أثار عَجَبي ودهشتي.. لكني.. ودَّعتُهُ شاكرًا.

****

رآني مولانا قادمًا، فنظر إليَّ من أسفل نظارته السميكة متفحِّصًا..

لم يُمهلني حتىٰ الجلوس:

- إيه ده اللي معاك؟!
- والله الراجل أهداني هذا الكتاب
- زُلْفىٰ يعني.
- زلفىٰ ولَّا قربىٰ ليه؟! والله هو رجل محترم يا أستاذنا.
- طبعًا طبعًا.. وإلا ما كنتش بعتَّك ليه
- واتكلمتم في إيه؟!
- والله في أمور الدنيا
- طبعا سألك عن نفسك وكلام من ده
- فعلا واستغربت جدًا يا أستاذنا.. يبدو أنه رجل ودود
- جدًا جدًا

تظاهر مولانا بالانشغال في بعض أوراق أمامه، ومن أسفل نظارته السميكة سألني:

- طيب.. ما شفتش حد كده ولَّا كده؟!
- حد مين يا أستاذنا؟!
- واحدة يعني

استدعيت المشاهد سريعا، فاستيقنت أنني إزاء عروس جديدة.. ولكني قررت المراوغة..

- آآآآآآآآآآه..شفت.. شفت

اعتـدل مولانـا في جلسته، وبـدا فـضوليًا أكثر ممـا يجـب، وابتـدرني سائلا: فتحت لك الباب؟!

- أيوه يا أستاذنا

- وإيه رأيك فيها؟!

- من ناحية إيه بالضبط؟!

- كويسة يعني؟

- والله واضح إنها سِتّ طيبة

- سِتّ إيه يا أخي؟! هو أنا بسألك عن أمها؟!

- مش قصد حضرتك الشغَّالة؟!

- لا حـول ولا قـوة إلا بـالله.. شـغَّالة إيـه يـا أخـي، أنـا هاعمـل إيـه بالشغَّالة؟!

- طيب أنا هاعمل بيها إيه؟

- يا أخي شُفت بنت دخلت عليك وإنت قاعد؟!

تظاهرت بالتذكر.. بَدَوْتُ كَمَن يبحث في دفاتر الذاكرة، ثـم فزعـت قائلا:

- أيوه يا أستاذنا، فيه واحدة دخلت من بَرَّه وقالت: السلام عليكم

- وبعدين؟!

- رديت عليها طبعًا

- طيب إيه رأيك فيها؟!

- والله يا سيدنا ما نظرتُ إليها

- وما نظرتش إليها ليه؟!

- السؤال: وأنظر إليها ليه؟! إزاي أقعد في البيت وأنتهك ستره وحرماته!

- يا أخي - والله - إنت عجيب!

- أبعتك تشوف العروسة جاي تقولي ما أخدتش بالي؟!

- والله لو قلتَ لي إنها عروسة كنت اتكلمت معاها وخليتها هي تخطبني.. لكن لم تنبهني كالعادة.. ثم إنِّي زي ما قلت مش هينفع أتجوز من القاهرة

- يا أخي اسمع كلامي مرة في العمر.. دول ناس طيبين، والبنت محترمة، وأهلها لن يكلفوك فوق طاقتك

- قصد حضرتك لن يكلفوني شيئًا.. عايزين راجل يعني

- وما المشكلة يا أخي؟! ربنا مش قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء]

لم أردّ علىٰ تساؤله غلقًا لباب الجدال.. حينها أدرك - رحمه الله - فهمي للسيناريو بتفاصيله.. فمولانا كان صادقًا..

يريد الرجل أن يُزوِّج ابنته لشخص محترم.. لا يهمه المستوىٰ المادي بقدر ما يهمه الجانب الخلقي.. فللبنت نصيبها الكبير من أبيها وأمها أيضًا.. وهو كفيل بأن يمنحها حياة مريحة ماديًّا.

تأكد لمولانا أنني لن أكون هذا الرجل.. فقد عرضت لي فرص كثيرة كهذه.. رفضتُها جميعًا.. وهو الأمر الذي كان يفسره دائمًا

بسلوكيات الفلاحين أو بالأدق (عنطزة الفلاحين).

انتهىٰ الأمر بعبارته التقليدية: خلاص يا أخي من اليوم فصاعدًا لا شأن لي بزواجك.. يمكن أن أساعدك في أي شيء إلا البحث عن عروسة.

لم يكن كلام سيدنا لينطلي عليَّ في هذا الموقف.. فقد تعلمتُ الدرس جيدًا، مولانا مُصرٌّ علىٰ تزويجي مهما كلَّفه الأمر.

***

مرت الأيام تباعًا.. كان بين وقت وآخر يقول لي: ما رأيك في الدكتور فلان؟ فأقول له: رجل محترم؟، فيقول لي: فما رأيك في مصاهرته، فأقول له: أما مصاهرته فلا، وهكذا دواليك إلىٰ أن باغتني يومًا بقوله:

- عملت إيه في موضوع العروسة؟!

- والله كنت هكلم حضرتك اليوم.. لقيت بنت كويسة، الحمد لله، وأهلها ناس طيبين

حدثته عن البنت وأهلها وأبيها وأمها.. لم أُحدِّثه عن رؤية رأيتها..

رأيتُنُي أتنزَّه في حديقة غنَّاء.. أحمل سلَّة من خَيْزُرَان فيها بطةٌ صغيرةٌ جميلة.. زرقاء العيون، ذهبية الريش ذات منقار أصفر فاقع لونه..

كان حجمها صغيرًا جدًا.. غير أنها كانت آسرة تأخذ بالألباب،

لكن أمرًا عجبًا حدث..

كلمـا اقتربـتُ منهـا تتحـول إلـىٰ معـدن فتـصعقني.. تمامًـا كمـا الكهرباء.

لم أطلب منه تأويلها، فلم تكن تحتاج إلىٰ تأويل، فهي أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أبدىٰ مولانا عدم رضاه عن الخطبة وعدد لي بعض المخاوف.. ومضت الأيام وانفصلتُ عنها.. وتحققت مخاوف مولانا.

***

خطبت للمرة الثانية، وسرعان ما حدثت مشاكل لم تكن متوقعة.. تدخَّل مولانا بنفسه للحل.. منح الخِطبة قبلة حياة، ولكنها منقوصة..

نعم تأخَّر الانفصال، لكن.. لم يكن منه بُدٌّ ولا مَنَاصٌ.

أتذكر تمامًا قوله: أرىٰ أن هذه الزيجة لن تتم.. وأرجو أن أكون مخطئًا في ظني.

ليس هذا فحسب!

لقد ظل مولانا معنيًا بأمر زواجي حتىٰ بعد زواجي.. فقبل وفاته بأيام قليلة- وكان كثيرًا ما تعتريه الغيبوبة الكبدية حينها- كنت في الحجرة المجاورة أقرأ في كتاب فإذا به يناديني:

- بص يا أخي.. أنا شفت لك عروسة كويسة.

- والله يا أستاذنا؟!

- أيوه يا أخي بنت محترمة جدًا وجميلة.. وأبوها كان راجل عالم ومهذب.. ووالدتها ما شاء الله.

- مين هي؟!

- أميرة بنت الدكتور فلان الله يرحمه.

- ربنا يبارك فيك يا مولانا، بس هي هتوافق تبقىٰ زوجة تانية؟!

- تانية؟! هو أنت اتجوزت؟!.. الله يهديك يأخي، دا أنا ناسي إني رحت الفرح بتاعك، وقلت كلمة في المسجد، واتغدينا كمان، قوم نام الله يهديك.

- طيب وإيه المانع يا مولاي؟! هههههههه

- هتقوم ولا أتصل بزوجتك دلوقتي؟!

- لا لا، زوجتي إيه يا مولانا؟! أنا من الموحدين علىٰ مذهبكم.

***

لم أكن الشخص الوحيد الذي اعتنىٰ مولانا بتزويجه، وإن كنتُ الأوفر حظًا، فهناك الدكتور عبد الوهاب القرش، والشاعر الأنيق الدكتور عصام خليفة الذي كان أثيرًا عنده، والصديق حسني سلطان الذي كان يقوم بتطبيبه حال مرضه، ففىٰ يوم من أيام شهر رمضان ذهب معه إلىٰ مسقط رأسه بالمحلة الكبرىٰ ومعهم زوجته والحداد، واتصل مولانا بأحد معارفه في القليوبية يطلب منهم تجهيز قليل من الطعام يصطحبونه للإفطار في الطريق..

وصلوا أمام المنزل وأُمر حسني بالنزول لإحضار الطعام، فلبَّىٰ طائعًا، وما هي إلا دقائق حتىٰ عاد سريعًا.. ودار هذا الحوار:

- مين اللي أعطاك الأكل يا أخي؟!

- تقريبا ابنتهم يا دكتور؟!

- هما عندهم بنات؟!

- تقريبا

- طيب هي كويسة؟!

- من ناحية إيه يعني؟!

- تتجوزها يعني؟!

- هي حلوة بس أنا مش بفكر في الزواج دلوقتي.

لم يتم حسني كلماته، فقد تكفل مولانا بالاتصال بأهل العروس يطلب حجزها، لكنها كانت مشغولة بحق الغير كما يقول الفقهاء.. طلعت مخطوبة.. وفرح حسني، وحمد الله، وأثنىٰ عليه بما هو أهله.

رحمك الله شيخي الأجلّ..

لا أظن أن فجرًا ينبلج، أو شمسًا تغرب دون أن يمسني طيف ذكراك..

فسلام عليك إلىٰ يوم ألقاك.



في خدمة تلاميذه..



«وكـم في حـضارتنا مـن صـور رائعـة يرتفـع فيهـا المخلصون المتواضعون إلىٰ درجة ملائكية مع علمهم وفضلهم وقدرتهم علىٰ أن يكونـوا في أرغـد عـيش وأرفـع مكانة»

لم يكن مولانا ممن يستنكف عن زيارة أحد مهما صغر شأنه أو رقَّ حالُه، فكثيرًا ما كـان يخصُّ تلاميـذه بزيـارات عائليـة يـصحب زوجتـه وبعض أهله، فمرة في دمياط عند محمد الحداد، ومرة في المنوفيـة عنـد الـدكتور صـبري أبـو حـسين، وأخـرىٰ عنـد الـدكتور ياسـر غريـب في الشرقية، بل كان يُدعىٰ إلىٰ زيـارة في الإسـكندرية أو المنيـا أو الأقـصر، فيُلبِّي طائعًا، ويرىٰ في ذلك تعظيما لشأن تلاميذه ورفعًا من شأنهم.

***

في عام 2002..

وفي ليلة بتنا سويًا في منزله بوادي حوف بضاحية حلوان،

كأن الوحي يتنزل علىٰ مولانا، فلا يكاد ينام حتىٰ يستيقظ..

نادىٰ: يا أستاذ وليد

في سكرات النوم.. كنت.

تظاهرت بالاستغراق، فربما كفَّ عن النداء..

من المؤكد سيطلب مني ضبط المنبه لصلاة الفجر.. لقد فعلت ذلك.

أو يطلب أن أُذكِّره بأمر ما في الغَد، فليكن ذلك في الصباح، أعاد مولانا الكرَّة ونادىٰ.. ما أبعد اليأس عنه.

- نعم يا أستاذنا؟ .. قلتها متثائبًا
- بقولك يا أخي، بص في الشقة كدة كويس وتعالىٰ
- نعم، أبص في الشقة؟! علىٰ إيه؟!
- بص فيها كلها..
- علىٰ إيه بس يا دكتور
- بص عليها بس، (لم يكن ليدلي بتصريحات أخرىٰ)

جعلت أَدُورُ في الشقة ولا أدري عن أي شيء أبحث.. قلت في نفسي: ليتني بِتُّ في مدينة نصر بدلا من هذا العناء.

- أيوه يا أخي
- نعم؟!
- بصيت عليها كويس؟
- آه تمام، مفيش حاجة
- مفيش حاجة إيه؟ عاجباك؟!
- جدا جدا ربنا يوسع عليك
- خلاص خدها إيجار
- إيجار؟! ليه؟
- هديهالك بـ 200 جنيه بس، خدها اتجوز فيها.
- بس يا أستاذنا أنا عملي في مدينة نصر، وما بين الشقة والعمل بعد المشرقين.

- بس شاور نفسك كده ورد عليَّ.

- إن شاء الله بس أنام الأول

- نام يا سيدي واشبع نوم.. خد الباب في إيدك.

لم يكن باستطاعتي أن أقبل عرض مولانا لبعد المسافة كما قلت، ولم أكن قد عثرت علىٰ عروس حتىٰ اللحظة.

مرت الأيام، وتعاقبت السنوات واتصل بي مولانا يطلب حضوري علىٰ عَجَل.

ذهبت إليه في مدينة نصر، وما إن دخلت حتىٰ وجدته متأهبًا للخروج ومعه الصديق عبد الباسط الحَسَني المحامي.. طلب مني المكوث في البيت حتىٰ يعود.. سألته: إلىٰ أين؟! لم يكن ليجيب علىٰ مثل هذه الأسئلة..

وحدي جلست.. كانت زوجته الحاجة نشوة في زيارة لأهلها بالمنيل

مرت ساعات قليلة قبل أن يحضرا

فوجئت بمولانا يقول لي:

- بكره تجيب عشرة آلاف جنيه وتيجي في الصباح

تحت أمر حضرتك بس ما مش معايا المبلغ ده كله.. ممكن أتصرف لحضرتك

هنا ابتسم عبدالباسط وقال: الدكتور اشترىٰ شقتين هنا في مدينة نصر، وعايز يأجر لك شقة

- بس يا أستاذنا..

- لا بس ولا ما بسش.. خلاص.. بكره تجيب الفلوس ونكتب العقد.

في اليوم التالي أحضرت المبلغ، كان ابن شقيقته الأستاذ حسن عبد العزيز موجودًا.. فشهد علىٰ العقد

إيجار عشر سنوات..

وبدأت رحلة تشطيب الشقة التي لم تسكنها زوجتي حتىٰ الآن.. رغم مرور أربع سنوات كاملة.

***

علم مرة بنشوب بعض الخلافات بين أحد تلاميذه وزوجته، فما كان منه إلا أن سارع بسيارته يخترق الفيافي، ويقطع المسافات حتىٰ وصل إلىٰ منزلهما، وكان تدخله حاسمًا فأشعَر الزوجة بخطئها، ورفع من شأن الزوج الذي كان يفتقد إلىٰ الثقة بنفسه.

من عادته أن يقول لأحد تلاميذه: كيف حال زوجتك وأولادك؟! ولا أقول لك، اتصل لي بها..

ويدور الحديث علىٰ هذا النحو:

- السلام عليكم.. أنا اسمي عبد الحليم عويس

- ......

- أخونا ده عامل إيه معاكِ؟

- ....

– طيب.. خدي تليفوناتي معاكِ.. ولو زعلك في حاجة كلميني.

كثيـرا مـا كـان يتلقـىٰ المظـالم مـن الأزواج والزوجـات علـىٰ حـد سـواء.. ويـرىٰ أن ذلـك أفـضل مـن شـكوىٰ المـرأة لأهلهـا.. فكـم مـن زيجة انفرط عقدها بسبب رعونة الأهل وتعنتهم.

***

زارني مولانا في بلدتنا مرات عدة، كانت الأولـىٰ سـنة 2002 تقريبًـا، واصـطحب فيهـا زوجتـه وولـدهما أنـس وزوجتـه وولـده، وتوالـت الزيارات مع زوجته الثانية وابنة خاله التي تزوج منها بعد وفاة الأولىٰ.

أذكـر يـوم زارنـا ومعـه زوجتـه الثانيـة الحاجـة (نـشوىٰ) والـصديق (رضا الميداني)، فقد جاء وليس في نيته المبيت، تناولنا الغداء وجلسنا طويلا، ثم بـدا لـه أن يبيـت ليلتـه عنـدنا، أرسـلني إلـىٰ زوجتـه بالـداخل لأخبرها بعزمه المبيت.

عبثًا حاولَتْ السيدة إقناعه بالعودة.. ولكن ذلك لم يكن مجديًا مع ديكتاتوريتـه المحببـة.. فقـد قـرر المبيـت عنـدنا.. شـرف لنـا مـا بعـده شرف.

مرةً.. اتصل ثاني أيام العيد ليخبرني بزيارته لنا ووصـوله بعـد نـصف ساعة علىٰ الأكثر، وهو ما جعلنا نعلن حالة الطوارئ، فلا صبر لمولانا علىٰ طهـي الطعـام، فـرغم كونـه غيـر أكـول إلا أنـه كـان كثيـر الحفـاوة بالطعام، ولَكَم قرَّع المضيف لتأخر الطعام أو لتقديمه باردًا..

وباردًا هنا يعني أن الطعام دون درجة الغليان.

همّتَ زوجتي ومعها والدتي بطهي الطعام للدكتور ومن معه، ورنَّ الهاتف.. وكانت المفاجأة!

لقد أتىٰ مولانا ومعه جيش عرمرم من الضيفان، كانوا أكثر من عشرة أفراد!

رحبنا بهم.. لم تكن هناك مشكلة مع وجود لحوم الأضحية.. ومن ثَمَّ عادت زوجتي لتزيد كمية طعامه بما يتناسب مع هذا العدد..

أما عن عزومات مولانا فحدث ولا حرج، ولو أطعناه في ولائمه لأقمنا بأولادنا في بيته لا نبرحه.. وكان صديقنا محمد الحداد أكثرنا حظًا من هذه الولائم.. وأحيانًا يذهب وزوجته مضطرين إلىٰ تلبية دعوة أستاذنا، وسرعان ما اعتادا الأكل بالإكراه.

وحدث أن ألحَّ عليَّ مرة في إحضار والدي ووالدتي وزوجتي وصغاري لزيارته مهددًا بأنه لن يدخل لنا بيتًا، ولن يأكل لنا طعامًا، ما لم نحضر إليه جميعنا.. فاستأذنتُه أن يكون ذلك في المحلة الكبرىٰ؛ باعتبارها الأقرب إلىٰ البحيرة حيث يقيم الأهل، فاستجاب علىٰ الفور.. ولقينا من الحفاوة والترحاب ما لقينا اللهم إلا من عصبيته الزائدة بسبب تحركات ولدي خالد الضارّة التي قلبت كيان المنزل رأسًا علىٰ عقب.

ولم يقتصر أمر المظالم علىٰ تلاميذه من المصريين، وإنما تعدىٰ إلىٰ تلاميذه من القيرغيز والأوزبك والكازاك والأتراك والمغاربة والبنغال والأفارقة.. كان جامعة إسلامية بما تحمله الكلمة من معنىٰ، لقد نجح في وراثة فكرة جمال الدين الأفغاني وتنفيذها واقعًا ملموسًا.

ويقتضي المقام هنا أن أختم بقصة تكشف عن معدن الرجل، بل عن جواهره وجوهره، فمن عجائب صنائعه أن (أصحاب علي) صاحب القصة الطريفة التي ذكرتها من قبل- أنهىٰ دراسته بمصر وهمَّ بالعودة إلىٰ بلاده، فعرض عليه مولانا أن يبقىٰ معه حتىٰ يستكمل الماجستير والدكتوراه، غير أن ظروف الطالب منعته لارتباطات في بلده، فتكفَّل مولانا بنفقات سفره وجهَّزه بجهازه وبعض الهدايا لأهله هناك.. كان الوداع حارًا.. فقد عاش حينًا من الدهر في خدمته.

وصل (أصحاب علي) إلىٰ بلاده، لكن مولانا ظلَّ مشغولا به.. فهذا خريج جديد يعاني كغيره من البطالة.. ولذا اتصل به ليسأله عن أفضل المشروعات التي يمكنه عملها في بلده، فدهش الولد، وسرعان ما أخبره أن أفضل هذه المشروعات هي تربية الأبقار.. فسأله عن ثمن البقرة فأخبره أن ثمنها يتراوح بين ألف إلىٰ ألف ومائتي دولار.. وعلىٰ الفور صدرت التعليمات لمدير أعماله الصديق (محمد الحداد) بإرسال خمسة آلاف دولار لـ (أصحاب علي).

***

لم تقتصر دائرة اهتمامه علىٰ تلاميذه فقط، إنما تعدىٰ هذا الاهتمام ليشمل آخرين، فاعتدت مثلا أن يسألني عن زملائي بالرابطة: أحمد سليمان، ياسر عدوي، وعن الصديق المبدع محمد الدويك الذي كان يصُفَّ له كتبه ويُجهزها فنيًا..

بل الأعجب من هذا!

طلب مني أن آتيه بنجار يصلح له بعض الأشياء، هاتفت صديقي

اللغوي محمد القرشي، فأرسل أخاه الأكبر (أحمد)، فاحتفىٰ به مولانا احتفاءً عجيبًا علىٰ طريقته..

تناول أحمد الطعام مع مولانا بالأمر، وعلىٰ مائدة واحدة..

ولما حانت ساعة المحاسبة، أعطاه مولانا ضعف ما طلب.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد

لقد ظل يسألني عن الرجل ويرسل إليه سلاماته.

***

يوم أن أراد بيع سيارته ماركة **Daewoo** عرض عليَّ أخذها بسعر مخفض، والسعر المخفض لدىٰ مولانا أن يأخذ ربع المبلغ مثلا، وكلما جئته بقسط من المال يؤخره شهرًا بعد شهر، ثم يُصدر فرمانًا بإسقاط الديون المستحقة عليك.

اعتذرت له عن قبول العرض، وقلت له: أنت أعلم بموقفي من قيادة السيارات، وهذا أمر لا أصلح له، ولا يصلح لي.

اتصل بأحد معارفه، كان شابا أربعينيًا، جاء الرجل مهرولا:

– كم تساوي هذه السيارة؟

– تقريبا خمسين ألف جنيه يا دكتور

– هي لك بأربعين

– لكن يا أستاذنا خمسين سعر كويس وأنا كده الكسبان

– خلاص.. أنا قلت أربعين يبقىٰ أربعين، ولو زودت في الكلام– والله– هخليها بتلاتين.

انصرف الرجل، ثم عاد بعدها ومعه المبلغ، وكانت المفاجأة!

لقد جاء ومعه خمسون ألفًا!!

استشاط مولانا غضبًا وعنَّفه قائلا: إحنا اتفقنا علىٰ أربعين يبقىٰ تجيب أربعين بس.

اعتذر الرجل، وسرعان ما انصرف قبل أن يُعاقب بشراء السيارة بثلاثين ألفًا!

هكذا عاش طائيًا سخيًا كريمًا...



القَطِيعَتَان!

> **«والعفو لا يكون عفوًا إلا عن قوة، والزهد لا يكون زهدًا إلا عن غنىٰ، والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل»**

العلاقة بمولانا دائمًا علىٰ ما يُرام، أرىٰ فيه العالم العامل الذي لا يكتفي بتعلم العلم وتعليمه، بل يُقدِّم ترجمة عملية علىٰ أرض الواقع، غير أن ديكتاتوريته لم تكن تروق لي أحيانًا، وكثيرًا ما كنتُ أقولُ: إن استبدادك يفوق استبداد أنظمتنا السياسية، وهذا مثال حيٌّ علىٰ أن الاستبداد فطري في مجتمعاتنا المريضة!

علىٰ أن موقفين حدثا أدَّيا إلىٰ شبه قطيعة لم تتعدَ في كل مرة عدة أيام، فأما الأولىٰ فقد أرسلني ذات يوم ببعض الأوراق إلىٰ أحد رموز الصوفية المعروفين بكثرة المريدين والأتباع، واستقبلني الرجل بحفاوة وترحاب بالغين، فلم أجد بُدًا من إخراج كتابين كلاهما لي: أحدهما مشترك مع مولانا، والآخر من تقديمه، فأهديتهما إليه، فقلَّبهما عن اليمين والشمائل باهتمام بالغ ولم يُخف إعجابه.

ويبدو أن الرجل قد دار برأسه أو تخيل أن يستعين بي في إنجاز بعض كتبه ودراساته، هكذا فهمتُ بعدما ألمح إلىٰ ذلك إلماحًا..

تغافلتُ عن الرد والتعليق كأني لم أفهم مراده، مضت ساعة يتعرَّف فيها عليَّ، ويعرفني بنفسه ونتحدث في بعض الأمور، ثم استأذنته في الانصراف.

ألحَّ عليَّ كثيرًا في المكوث، غير أني اعتذرت لظروف السفر.

تنحَّىٰ في ركن غرفته الواسعة، ثم أسرع ليودعني علىٰ الباب، وإذا به يفعل أمرًا عجبًا!

صافحني وبكفِّه بعض ورقات مالية من فئة المائة جنيه، ثم قال: هذه نفحة لا تُرد..

كنت وقتها مخيرًا بين أمرين: أن أقذف له هديته، فأُسيء إليه كما أساء إليَّ، أو أعتذر بالحسنىٰ حتىٰ لا أُغضب مولانا عويس.

اخترتُ الثانية علىٰ مضض، فأنا رسوله إلىٰ الرجل وممثل لشخصه، ولو حدث مني ما يكرهه سيكون العتاب شديدًا.

حاولت إخفاء غضبي وثورتي خلف ابتسامة عريضة مصطنعة، واعتذرت بحميمية ولطف شديدين، لكنه ألحَّ، شكرته.. لكنه أصرَّ.

«هذه نفحة لا تُردُّ يا مولانا».. كرَّرها كثيرًا حتىٰ مللتها

قلت في نفسي: نفحة، نفحة! إن النفحة لم تأت في القرآن إلا في موضع الذم (ولئن مسَّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا)

لم أجد عن تركه مَصْرِفًا.

لم تمض سوىٰ ساعات قليلة حتىٰ اتصل بي والدي– بارك الله عمره– يحدثني بلهجة قاسية لم أعتدها، لقد اتصل مولانا يشكو له (جلافتي) في التعامل مع من أرسلني إليه اليوم.

قصصت عليه الأمر، فقال: معك حق، ولو صنعتَ معه أكثر من ذلك ما كان عليك من مَلامٍ.

تنفستُ الصعداء، ثم اتصلتُ بمولانا لأشرح له الأمر، فلم يكن لديه استعداد ليسمع ما أقوله، وبادر بإنهاء المكالمة مما أثار غضبي..

مرَّت عدة أيام لا أتصلُ ولا يتصل، وأثار ذلك فضول البعض، وجعل الرفاق يتساءلون!

ويبدو أن أحدهم- ربما كان محمد الحداد- اتصل بي فقصصت عليه ما حدث، فذهب إلىٰ مولانا فنقل الموقف، فتأسَّف لذلك كثيرًا؛ لأن صاحبه أفهمه أنني تعاملت معه بكبرٍ وأَنَفَةٍ ولم يذكر موضوع النفحة.

كنتُ في البلد عندما اتصل مولانا بالمنزل، فردتْ عليه الوالدة ردًا مقتضبًا علىٰ غير عادتها، وسرعان ما نادتني: كلم يا ليدو.. هكذا تُحب أن تناديني- بارك الله في عمرها.

فرد عليها: إذا كنت بتدلعيه كده، أمال مراته تقول له إيه؟! هاهاها

- السلام عليكم يا أخي، أنا اسمي عبد الحليم عويس

- أهلا وسهلا، مرحبًا

- فينك من كام يوم

- موجود يا أستاذنا

- طيب تأتيني اليوم إن استطعت أو غدا

- لا أظنني سآتي بعد كل ما حدث، ولو سامحتك لنفسي ما سامحتك عن والدي، لقد ظنَّ الرجل بي ظن السوء، وأيقن في لحظة أن تربيته صارت هباءً منثورًا، ثم إنك فعلت ما فعله داود عندما قال:

(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ) دون أن يسمع إلىٰ الطرف الآخر، وكان الأحرىٰ بحضرتك أن تُنحِّي والدي عن الموضوع، وتتصل بي لتسمع مني مباشرة، بدلا من اعتماد مكالمة الرجل علىٰ أنها قرآن لا يتبدل..

– والله يا أخي كان ذلك في ساعة غضب، وعلىٰ العموم يا سيدي متأسفين لك، أما الوالد فأنا به كفيل لأنه رجل طيب، ولو موجود جنبك نعتذر له.

– الوالد؟! (قلتها بصوت عالٍ، كان الوالد بجانبي يتابع الحديث فأشار بالرفض، وانصرف عن الحجرة التي كنت فيها) فلم أجد مفرًا من القول إنه ليس هنا، وأشرتُ إلىٰ الحجرة.

تجاوزنا الأزمة، وعادت المياه إلىٰ مجاريها، وتثاقل المرض علىٰ مولانا شيئًا فشيئًا.

***

وبقدوم شهر رمضان يزداد التصاق المريد بشيخه..

وككل المصريين، فللشهر عند أستاذنا مكانة خاصة. هو شهر للعبادة والولائم معًا، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا أظنه يطيق مرور يوم دون إطعام صائمين في بيته، ولا عزاء للحاجة نشوىٰ التي تعاني (الأمرّين) في سبيل ذلك.

كالرهينة كنت دائمًا عنده، وفي رمضان يحرم عليَّ الإفطار في أي مكان آخر، وليس لديَّ عذر، فأولادي في بلدتنا مع جديهما، والاعتذار إلىٰ كل من يدعوني إلىٰ الإفطار جاهز سلفًا..

في يوم لم تخرج له شمس– كما يقولون في ريفنا المصري– دعاني مولانا كعادته، فاعتذرت بشدة، ألَحَّ كثيرا فتمنَّعت، ثم إنه كعادته الديكتاتورية المحببة أنهىٰ المكالمة بقوله: «طيب إن شاء الله بانتظارك يا أخي.. السلام عليكم» لم يترك فرصة للرد.

كان الذهاب مستحيلا، فأسامة ابن الحاجة نشوىٰ وأولاده سيفطرون معها، ولا أُريد أن أُسبب لهم حرجًا، نعم أسامة يُحبني وأُحبه لدينه وخلقه وأدبه، لكن من حقه وأولاده أن يختلوا بأمه ولو لساعات معدودة قبل أن يمتلأ البيت بالأتراك والقوقاز والأفارقة والمصريين!

لم تك تفصلني عن الإفطار سوىٰ لحظات قليلة عندما اتصل أسامة يبلغني بانتظار الدكتور، عاوَدَ الاتصال مرةً ثانيةً وثالثةً، فاعتذرتُ مرارًا، غير أنه لم يكن هناك بُدٌّ من الذهاب راغمًا.

سريعًا.. ارتديتُ ملابسي، وأخذت تاكسيًا يُسارع الزمن علىٰ وقع رنَّات المحمول المتلاحقة..

استقبلني أسامة مُرَحِّبًا بالتزامن مع أذان المغرب.. وسرعان ما دلفت إلىٰ حجرة الدكتور، كانت مفاجأة أشد دويًا من مدفع الإفطار.

دارت بي الأرض عدة دورات عندما استقبلني قائلا: كنت فين يا أخي الله ينتقم منك؟!

لم أَرُدّ من هول المفاجأة..

أحسبُها المرة الوحيدة التي غضبت فيها كل جوارحيز

نعم!، كل جوارحي كانت غضبىٰ..

جلستُ لا أُحرِّك ساكنا، لم أشأ الخروج حتىٰ لا أُسبب حرجًا لأسامة وأولاده وأُعكِّر صفوهم.

جلست في الحجرة مع مولانا وأمامنا الإفطار، أحسست أن فمي موصد لا يُمكنه أن يأذن لطعام مهما كان، شربتُ الماء كأنما تقطعتْ له أمعائي.

الدكتور يتصرف طبيعيا كأن شيئًا لم يكن، كُلْ دي، وخُدْ دي..

مرت اللحظات ثقيلة قبل أن ينتهي الأهل من الإفطار، وما إن رأيت أسامة مُقبلا حتىٰ انتفضتُ قائلا: ائذن لي يا دكتور

تعجَّب مولانا باستنكار قائلا: فيه حاجة؟!

قال أسامة: لا لا.. أبدا، تعال لحظة يا وليد.

خرجنا من الغرفة إلىٰ غرفة الاستقبال، عبثًا حاول إقناعي بأن الرجل في غيبوبة منذ العصر..لم أسمع إليه، فقط كنت أستمع إلىٰ صوت نفسي..

انصرفت رغم توسلات أسامة وماما نشوىٰ..

كنتُ قاسيًا إلىٰ أقصىٰ درجة، لم أُقدِّر مرض الرجل، ونسيتُ كل معروفٍ أسداه إليَّ، نسيتُ كيف كان يحتفي بي وسط الناس.

نسيتُ كيف كان يُقيم مَنْ بجانبه ليفسح لي مجلسا في الصدارة، نسيتُ عبارات الثناء والتنبؤ لي بمستقبل باهر..

نسيت كل معروف صنعه.

يا الله!

كم كنتُ غبيًا وأنانيًا!

مرَّ يومان قبل أن يتصل مولاي:

- السلام عليكم يا أخي.. اسمي عبد الحليم عويس وبعتذر عن اللي حصل مني.

- أأ..أأ.. أبدا يا أستاذنا أنا اللي بعتذر

- يا أخي مش عارف بتوع دمنهور زيك كده كلهم ولا أنت حالة فريدة؟

- كله زي بعضه يا أستاذنا

- طيب يا أخي.. خلص شغلك وتعالىٰ النهاردة هنفطر مع بعض.

لم يتكرر هذا الموقف ولا شبيهٌ له، وأذكر أن المقربين من مولانا كالحداد والميداني تساءلوا أكثر من مرة: لماذا لا يُشتم وليد مثلما نُشتم عند تعكُّر مزاج مولانا بسببٍ من العلاج والغيبوبة؟!

هكذا قالت الحاجة أيضًا.

يا رحمة الله لعويس..



مولانا رئيسًا..

> «وحسْبُكم الإخلاص فى نيّاتكم، وتنفيذ ما يأمركم به، بصرف النظر عن مستوى إدراك عقولكم، تاركين النتائج له وحده»

- «آلو.. السلام عليكم يا أخي، ضروري تروح بكرة شغلك وتقدِّم استقالتك»

فَاجَأَني مولانا بهذا الاقتراح الذي هو في الأصل أمرٌ غير قابل للنقاش أو التحاور..

لكن لماذا أترك عملي بعد كل هذه السنوات التي قضيتها؟!

نعم ما أتقاضاه لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وكلما تحدثنا عن تحسين أوضاعنا قيل لنا إن المنظمة محدودة الموارد، وهذا الأمر ليس ممكنًا؛ ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فإن والدي– بارك الله في عمره– طالما وضع النقود في أمتعتي على حين غفلة مني، فقد كنت أرفض رفضًا تامًا إلا أن أعتمد على نفسي.. أُبدي ضجري وأسفي لهذا التصرف، وفي النهاية آخذها إنْ طائعًا في نفسي، وإنْ مُرغمًا بالفعل.

لولا أننا نعيش في مجتمع لا يرحم؛ لاخترت الجلوس في بيتنا والأكل مما تنبتُ الأرض من بقلها وقثائها، نزولا على رأي أبي الذي طالما قال إن وقتي في هذا العمل ضائع لا طائل من ورائه، وكم طلب

مني استكمال دراستي العليا علىٰ أن يمنحني أضعاف ما أتقاضاه.

ليس هذا موضوعنا..

إن دهشتي لم تطل كثيرًا، فقد علمت منه أن الدكتور محمد المختار المهدي– الرئيس العام للجمعية الشرعية– قد طلب إليه أن يترأس تحرير (مجلة التبيان)، وبناءً علىٰ ذلك رغِبَ مولانا أن أكون معه سكرتيرًا للتحرير، ويبدو أنه تحدَّث حينها مع المهدي في شأني، فوافق نزولا علىٰ اقتراح سيدنا المـُلزِم، رغم وجود كفاءات كثيرة في المجلة آنذاك أمثال إسلام فرحات الذي كان يعمل سكرتيرًا للتحرير، والأستاذ حسين أحمد الذي عمل مديرًا للتحرير بعد ذلك.

شكرتُ لمولانا ثقته وصنيعه، واعتذرتُ رغم سخاء العرض المقدَّم، فقد أغراني براتبٍ آخر من جيبِهِ الخاص فضلا عن راتب الجمعية الضئيل، فحزَّ ذلكً في نفسه ووصفني بالعقوق وصلابة الرأي في غير موضعها.

كان لابد من صياغة تقرير يُمثِّل رؤيته الجديدة لتطوير المجلة لعرضه علىٰ الشيخ المهدي فجلسنا نتصفح بعض أعداد جَلَبَها عند مقابلة الإمام، وندون الملاحظات حتىٰ تم إنجاز التقرير وإرساله.

لم تكن مهمة رئاسة التحرير بالأمر الهين، فقد واجه الدكتور عويس عدة صعوبات ذلَّلها بكثير من الحكمة والتأنِّي، فهناك اتجاه داخل الجمعية بقيادة أمينها العام الدكتور رضا الطيب يُصرُّ أن تظل المجلة لسان حالها المعبر عن أنشطتها وفكرها، بحيث لا تخرج عنه قيد أُنملة، لكن رئيس التحرير الجديد يرىٰ في ذلك اختزالًا غير مقبول

لدور المجلة التي لا يمكن أن تتوقف عند هذا الحدِّ، فبدأ في زيادة الجرعة الثقافية والفكرية، وهو ما رآه البعض تقليلًا من شأن الجمعية وخروجًا عن المألوف لديها، حتىٰ جاء الوقت الذي رضخ فيه الجميع بعد النجاح الملموس الذي حققته المجلة.

فضلا عن الارتقاء الموضوعي بالمجلة، شهدت طفرة ملموسة في تقْنيَات إخراجها بحيث أصبحت أكثر إبهارًا من ذي قبل، وارتقىٰ أسلوب الكتابة لينتقل من اللغة التقريرية الجافة إلىٰ اللغة الإبداعية الرشيقة، واستُحدثت أبواب أكثر ارتباطًا بالواقع عن المرأة والطفل والأدب والتحقيقات الصحفية الآنية، والتقارير السياسية، وباب آخر عن الشريعة والقانون، وصار هناك اهتمام أكثر بقضايا العالم الإسلامي وواقعه الملموس.

كان يراجع المجلة كلمةً كلمةً، ويُعمل فكره وقلمه حتىٰ تُتاح للقارئ في أجمل حُلَّة وأبهىٰ صورة.

بذل الرجل جهودًا مُضنية غير مسبوقة حتىٰ يُخرج المجلة من القُطْرية الضيقة إلىٰ العالمية الفسيحة، فبدأ في استكتاب شخصيات من خارج مصر أمثال المؤرخ العراقي الدكتور عماد الدين خليل، والمفكر الجزائري الدكتور محمد الهادي الحسني، كما أتاح مساحات بالمجلة لإسهامات الطلاب من خارج العالم الإسلامي لا سيما الهنود.

بدأت المجلة تعرف طريقها إلىٰ العالمية بتوزيعها بريديًا بالمجان علىٰ كثير من رموز الفكر والأدب، فضلا عن إرسالها إلىٰ المؤسسات

والمنظمات الدولية والهيئات الحكومية خارج مصر، وكان من عادته أن يصطحب معه أعدادًا كثيرة من المجلة لتوزيعها في المؤتمرات والمحافل العالمية الكبرىٰ.

ليس هذا فحسب، بل بحث عن دور آخر أوسع نطاقًا للمجلة، فكانت فكرته بعمل ندوة شهرية باسم المجلة تتناول الموضوعات الحيوية والآنية، وظلَّ حريصًا علىٰ حضور الندوة وإدارتها حتىٰ في أشدِّ لحظات مرضه.

ويوم رُشِّحَت الجمعية الشرعية للحصول علىٰ جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام للعام 2009، وضع في الاعتبار وجود مجلة فكرية ناطقة بلسان حال الجمعية إضافة إلىٰ أعمالها الخيرية في مصر والعالم، ولا سيما جهودها الإغاثية في قطاع غزة عقب الاعتداءات الصهيونية الغاشمة.

ظل مولانا يتابع عمله بالمجلة حتىٰ اشتد عليه المرض قبل وفاته، فأراد أن يتخلَّىٰ عن عمله لعدم مقدرته، فرفض الشيخ المهدي، وأخذ علىٰ عاتقه مراجعة المجلة مكتفيا من مولانا بكلمة رئيس التحرير، فظل مداومًا عليها حتىٰ كان في مرضه الذي قضىٰ فيه، فاستدعىٰ الصديق محمد الحداد ليملي عليه مقاله الشهري، ولم تفلح محاولات الأطباء في العناية المركزة في منعه من الكلام، بل من العمل.. فكتب مقاله..

رحمه الله، كم كان محبًا لعمله ورسالته.

التكريم..

> **«وسيبقىٰ في كل عصر، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»**

تجاهله وطنه الذي عشق ترابه، وتآمر عليه العلمانيون والتنويريون ومعاشر الماركسيين الذين كانوا- وما يزالون- يتولون أزِمَّة الثقافة في مصر، مجسِّدين البلطجة الفكرية في أحطِّ صورها ومعانيها.

فإن كرَّموا أحدًا بداعى جهوده في خدمة الإسلام، فإنما يختارون أصحاب الاتجاهات التنويرية الشاذة التى تُسىء إلىٰ الإسلام أكثر مما تخدمه، والمقام يضيق بذكر هؤلاء الذين حصلوا علىٰ جوائز عن جهودهم في التقعيد لموضوعات تافهة شاذة، من قبيل فقه الجنائز والطهارة والمراحيض.

حتىٰ الأزهر الذي تعلَّم فيه وأحبَّه، لم يحظ منه بتقدير، ولو يسيرًا، رغم علاقاته المتشعبة بكثير من رموزه أمثال الدكتور احمد الطيب- الشيخ الحالى للجامع الأزهر- والدكتور على جمعة- المفتى السابق للديار المصرية- وغيرهما من الرموز الدينية، وبلغت علاقته بالشيخ الطيب أنه كان يذهب إلىٰ ساحتهم بالأقصر فيقيم أيامًا في ضيافة آل الطيب، ولقد سمعته بأذني يعاتب الشيخ في مكالمة تليفونية، كان مما قال: «إنك تحب الأزهر من دون لله، والذين آمنوا أشد حبًا لله، وعليك

أن تتلقىٰ النقد الموجه إلىٰ المؤسسة بصدر أكثر رحابة»، وعلمتُ بعد ذلك أنه كرر هذا الكلام في مكتب شيخ الأزهر نفسه أثناء زيارته وبرفقته بعض الأتراك.

أما جمعة فقد ربطت بينهما علاقة طويلة عندما كان يعمل محاسبًا ماليًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، وذلك قبل أن يُعيَّن بجامعة الأزهر، وأذكر أنه اتصل به في ليلة يسأله في المسألة الأرمينية، فشرح له مولانا المسألة بإسهاب شديد، وقبل ذلك كانت لهما جهودٌ مشتركةٌ منها موسوعة علمية حول (مصطلحات علوم القرآن).

سألته مرةً عن عدم مشاركته في فعاليات وزارة الأوقاف، فأشار إلىٰ علاقته المتوترة مع الدكتور محمود حمدي زقزوق- وزير الأوقاف آنذاك- بسبب من الاختلاف الفكري بين الرجلين، إذ ينتمي عويس إلىٰ مدرسة المحافظين، علىٰ حين يعدّ الآخر نفسه ضمن التنويريين.

والحق يُقال إنه كان هناك اتجاه داخل وزارة الأوقاف أثناء تولي الدكتور طلعت عفيفي وزارة الأوقاف لتكريم اسم الدكتور عويس، لكن الأحداث التالية أطاحت بآمال أهله ومحبيه، وليظل التكريم والاحتفاء مقتصرًا علىٰ أقلام بعينها، وأفكارٍ لا يُراد لسواها الظهور والانتشار.

وفي العام 2011م الذي تُوفي فيه اتصل تلميذه النجيب الأكاديمي والأديب السوداني البروفيسور جمال نور الدين؛ لينقل إليه رغبة الرئيس السوداني الفريق عمر البشير في تكريمه، ومنحه وسام العلوم،

لجهوده العلمية والفكرية في خدمة الدعوة الإسلامية.

تلقَّىٰ الرجل الدعوة بفرحةٍ لا مثيل لها، وسرعان ما صدرت الأوامر للصديق محمد الحداد بشراء الهدايا التى سيصحبها في رحلته، وطلب هدايا ثمينة جدًا، فقلت: يا مولانا؛ أُحسُّ أنك الذي ستُكرِّم السودان ورئيسه وليس العكس، فابتسم ابتسامته المعهودة، وقال: لابد أن نُكرِمَ الناس كما أكرمونا باختيارهم لنا.

اتصلت الرئاسة السودانية تطلب إحاطتهم بأسماء الضيوف الذين سيصحبونه في سفره لحضور التكريم، فاقترح عدة أسماء منها: الدكتور محمد عمارة، والدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور راغب السرجاني، والدكتور عمرو خالد، والدكتور محمد أبو ليلة، والكاتب والمفكر التركى إحسان قاسم، والدكتور الجراح عبد الله عيَّاد زوج الدكتورة استشهاد البنا، والدكتور محمد حمزة وكيل وزارة التعليم العالي.

لبَّىٰ الدعوة هاشم، وأبو ليلة وحمزة وعيَّاد، وجاء الأستاذ إحسان من تركيا خصيصًا لتهنئة صديقه، واعتذر الباقون، وصحبتُه مع زوجته والحدَّاد.

في تلك الأيام اشتدت وطأة المرض علىٰ الدكتور بحدة مخيفة، فكنتُ أنظرُ إلىٰ وجهه الشاحب وجسمه النحيف، فتُرجّع ذاكرتي صدىٰ الأيام الخوالى، حيث صورته مِلءَ السمع والبصر، تتبعه الأناقة أينما كان، وتسبقه بهجة العلم وإشراقة الوجه وذلاقة اللسان، طالما غالبتنى دموعى وتألمت لأستاذي وأنا أراه يتألم من شدة المرض، فلا يزيد عن قوله: «**يا لطيف، أنا عبدك الضعيف**».

***

حانت ساعة السفر، لكن مولانا لم يخرج من بيته إلىٰ المطار كما اعتاد في سفراته العديدة..

خرج من مشفىٰ بضاحية مصر الجديدة، بعد عدة أيام من العلاج تحت إشراف بعض الأطباء الذين كانوا يسابقون الزمن، لا سيما بعد أن صارت الغيبوبة الكبدية تداهمه بشكل متكرر.

وصلنا السودان وسط حفاوة وترحاب شديدين، والحق إن الأشقاء السودانيين كانوا أكثر وُدًا ولطفًا، وأكثر تقديرًا لعلم الرجل ومصريته، وهذا ما لمسناه بأنفسنا في الأيام القليلة التي مكثناها ضيوفًا عليهم.

وصلنا الفندق فكانت المفاجأة!

بانتظارنا شخصٌ عزيزٌ علىٰ نفس مولانا، فما رآه حتىٰ ابتهج وفرح، وسرعان ما دمعت عيناه، عندما وجد نفسه حبيس كرسي متحرك كان بمثابة سجنٍ متحركٍ، ولا قوة له علىٰ الوقوف للترحيب بالأستاذ إحسان.

***

في المساء دُعينا إلىٰ حضور ندوة شعرية لأحد الشعراء من دولة شقيقة، لبَّىٰ الجميع الدعوة شاكرين، وكنت منهم، وما هي إلا لحظات حتىٰ صعد الشاعر مِنَصَّته ليلقي علينا بعض قصائده.

الرجل مُمسك بديوانه يقرأ بعض قصائده..

يا إلهى، ها هو يتحسس كلماته كأنه لم يقرأها من قبل، يتهجي المفردات كأنها لم تجر من قبل له علىٰ قريحة أو لسان!

يقرأ شعره كما لو كان يقرأ لغة قوم لا عهد له بها من قبل..

أصابني الدوارُ أو كدتُ..

وانتهىٰ الرجل وسط تصفيق حاد من الحضور... لا عجب؛ فهو لم يأت وحده، وإنما صحبته جوقة قاربت العشرين رجلا وامرأة،

لكن ما أحزننى أن أحد الأساتذة الأكارم من الحاضرين طُلب منه أن يتحدث عن رؤيته لـشِعْر الرجل، فقام– وكان شاعرًا وخطيبًا مُفوَّهًا– فتحدث عن إحساس الشاعر ولغته الشعرية العالية، وأفكاره التي لا مثيل لها في ديوان العرب..إلخ

أخذت حرارتي في الارتفاع، فما يقوله لا يصدُق بحال علىٰ هذا الغثاء الركيك المسمىٰ مجازًا بالشعر!

لم يتوقف الرجل عند هذا الحدِّ، بل اختتم كلمته قائلا: واسمحوا لي يا سادة أن أقول في شاعرنا ما قاله حافظ إبراهيم لأحمد شوقي:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مُبايعًا وهذي جموعُ الشرقِ بايعتْ مَعي

عندها بلغتْ روحى الحُلقوم، وشككتُ في نفسى إن كنتُ قد حصلتُ علىٰ شهادتي في اللغة العربية وآدابها، أم في تخصص آخر.

انتهت الأمسية اللاشعرية، وسارعت إلىٰ صاحبنا إياه، فسألته:

- إيه رأي حضرتك بصراحة في الشاعر ده؟

- والله شاعر علىٰ قَدِّ حاله (يعنى دون المستوىٰ)

- فلِم كل هذه الحفاوة، ولِم قلتَ فيه ما قاله حافظ في شوقي وهو لا يستحق!

هزَّ الرجل رأسه، ومطَّ شفتيه، ثم قـال: والله الرجـل أحرجنـي اليـوم بعد أن أهداني ساعة **Rolex** سويسرية باهظة الثمن.

لقد كان الشاعر رجل أعمال!

***

جاء يوم التكريم، واستعد الجميع لمغادرة الفندق.

كان مولانا قبل أن نبرح القاهرة طلب أن أكتبَ كلمته التى سيُلقيها أمام الرئيس البشير، فنشطتُ حتىٰ أنجزتها، فراقَتْ لـه، ثـم عـدَّل بعـض الكلمات وزاد عليها، فلمَّـا كانـت ليلـة التكـريم طلـب الورقـة فأعطيتُـه إياها، وعندما حان وقت إلقاء كلمته نحَّىٰ الورقة جانبًا، وجعل يرتجـل وسط انبهار الرئيس السوداني وجميع الحاضرين، والحق أن مناقشات جرت يومها كشفت عـن ثقافـة البـشير العاليـة واطلاعـه الواسـع، حتـىٰ علىٰ بعض كتب الدكتور عويس، فضلا عن خفة ظلٍّ لا نظير لها.

العجيب أننا اكتشفنا بعد ذلك أن الرجل كان يعاني وقتها مـن بـوادر غيبوبة إلا أنه قد تغلب عليها أو كاد.

***

ومن المواقـف الجـديرة بالـذكر في هـذا الـصدد مـا حـدث مـع أحـد رموز الفكر الإسلامى في السودان والعالـم الإسلامى، وهـو شـخص ذو ثقافـة واسـعة ولـسانٍ طلـق وعبـارة بليغـة، وحـدث أن انتقـده مـولانـا في إحدىٰ الجلسات العلمية بالحجاز، فحمل عليه كثيرًا، فـصارت قطيعـة بينهما، وعنـدما كنَّـا نتأهـب للسفر إلىٰ الـسودان، قلـتُ لـه: ومـاذا عـن فلان؟ لابد أن الظروف ستجمع بينكما؟ ألا ترىٰ أن تُطيِّب خاطره وإن

كان هو المخطئ؟!

قال: نعم، بل حريصٌ علىٰ مقابلته، والاعتذار إليه رغم تعامله الخشن معي.

منذ وصلنا السودان ومولانا دائم السؤال عن هذا الرمز الفكري، حتىٰ جاء اليوم الذي ذهبنا لحضور ندوة بالخرطوم، وما إن دخلنا المبنىٰ المخصص للندوة حتىٰ تفاجأنا بالرجل أمامنا.. كان بالفعل يمشي مزهوًا ..

كالطاووس!

سامح الله من خلع عليه هذا اللقب، فقد جاء معبِّرًا عن هيئة الرجل بدقة متناهية.

لم يره الدكتور عويس- الذي كان جالسًا علىٰ كرسيه الطبيّ بعد أن أنهكه المرض- لكن الرجل تجاهله كأنه لم يره.. لم يرقّ لحاله ومرضه..

في هذا الوقت كان يُلحُّ في السؤال عنه.. فقلت أنا والحداد: سنحاول الاتصال به لزيارته إذا كان هنا في السودان.. لم تك تفصلنا عنه إلا بضعة أمتار قليلة.. تذكرت حينها قول مولانا عنه قبل ذلك: «مسكين، يشقىٰ بنفسه!».

***

تجهَّزنا للعودة إلىٰ مصر في اليوم التالي للتكريم، إلا أن مفاجأة غير سارة حدثت اضطرتنا إلىٰ التأجيل.

مرض مولانا، وأدركته الغيبوبة الكبدية مرة أخرىٰ.

تم نقله إلىٰ مشفىٰ تخصصى، وأُدخل إلىٰ العناية الفائقة، وعدنا أدراجنا إلىٰ الفندق، وعلم أحد الموظفين المصريين بالمشفىٰ- واسمه أحمد خميس- أن مصريًا موجود لديهم، فهرول إلىٰ نجدته، وكان قد بدأ في الإفاقة رويدًا رويدًا.

ويبدو أن خميس لمَّا لم يجد أحدًا منا بجواره ظنَّه وحدَه في السودان؛ فأسرع إلىٰ الحسابات ليدفع مبلغًا تحت الحساب لعلاجه، فجُنَّ الموظف وصاح فيه: كيف تدفع لرجلٍ وهو ضيف علىٰ الرئاسة؟!

تفاجأ خميس وأسقط في يديه، وبلغنا ذلك، فشكرنا له صنيعه، وظل يصحبنا بقية الأيام في المستشفىٰ وخارجها حتىٰ سافرنا.

إنها صورة من شهامة المصريين الحقيقيين الذين لم تُغيِّرهم الأيام.

لم تكن الرحلة كلها صعبة، وإنما تخللتها بعض القفشات التى لم تنمح من الذاكرة رغم تعاقب الأيام والليالى، فبينما كنا نجلس في بهو فندق**Coral Khartoum Hotel** إذْ به يناديني- وكان في شبه غيبوبة- ويطلب مني طلبًا عجيبًا!

-ناديني الأخ الأسمر ده.

نظرت فإذا الإخوة السودانيون كلهم سُمر البشرة، فقلت: مين بالضبط يا أستاذنا؟!

فكرر ما قاله وقد بلغ به الغضب منتهاه: بقولك الأخ الأسمر ده يا أخي!

لم أجد بدًا من الذهاب والإتيان بأحدهم، فكان الأديب الدكتور جمال نور الدين، وبفضل الله كان هو المقصود.

وفي عشاء علىٰ شرفِ مولانا ببيت وزير الدولة السوداني للثقافة (على مجوك) سألوه إن كان يريد حلوىٰ معينة أم يأكل طبق (أم على)، ويبدو أنه تذكر خادمته الوفية (أم أمل) فأجابهم بسرعة: لأ عايز أم أمل!

فضحك الجميع حتىٰ الثمالة...

رحمك الله مولاي.



في ظل شجرتين..

«وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي»

قليلا ما يصدق القول بأن وراء كل رجل عظيم امرأة، أو أن وراء كل قصة نجاح امرأة، إلا أن ذلك يصدق تمامًا علىٰ هذه المرأة التي ارتبطت بمولاًنا عدة عقود، زوجةً ومربيةً مثقفةَ الفكر.

إنها الزوجة الأولىٰ له وأم أولاده، السيدة سعاد الواقدي عليها رحمة الله..

هي من نِعَم الله التي أنعمها عليه، صغرتْهُ بعدة سنوات في كلية دار العلوم، وكافحت معه بدءًا من السفر إلىٰ الكويت، وحتىٰ العودة من السعودية بعد نحو عشرين عامًا من الإقامة هناك.

امتازت بقدر وافر من رجاحة العقل والرزانة والاعتزاز بالنفس، فاعتمد عليها كثيرًا في إنجاز بعض أعماله، ومراجعة مقالاته، وإبداء الرأي فيها؛ نظرًا لتكوينها اللغوي والشرعي، بل كان يلجأ إليها في بعض المسائل العلمية التي لا تسعفه بها ذاكرته، باعتبارها نتَاج دار العلوم... تلك الدار العريقة التي حملت لواء الثقافة والفكر الإسلامي منذ نشأتها الأولىٰ.

ولعل أهم ما انمازت به عفة اللسان، وقلة الخُلطة والكلام، والتنظيم إلىٰ أقصىٰ درجة ممكنة.

كانت سيدة مجاملة ودودة، ويوم زارتنا في بيتنا لأول مرة، رأيتُها جمَّة التواضع والأدب وغاية في النُّبل.. نزلتْ من السيارة وفي يدها بَدْلَةٌ جديدة من صوف المحلة الكبرىٰ، ولم تنس وهي تدفعها إليّ أن تقول- بشيء من الأسىٰ- علىٰ مسمع من مولانا: إنها من اختيار الدكتور.

لم أفهم المراد من تلك العبارة إلا بعد انصرافهم، فقد كانت البدلة موضة قديمة كما يقولون، وإن كانت صوفًا وقشيبة غالية، وهو ما يعني أن الدكتور انتقاها علىٰ غير رغبة منها، فهو يختار لي ما يختاره لنفسه، وهو محلاوي صميم محب لصناعة بلده، وكثيرًا ما يشتري الهدايا صوفًا محلاويًا يتباهىٰ به داخل مصر وخارجها..

لكن أمرًا قيل لي بعد ذلك فأثار دهشتي!

أراد مولانا منذ سنوات الزواج بثانية، ووجد في نفسه رغبة لذلك؛ فسارع إلىٰ زوجته في ذلك الوقت ليستأذنها عارضًا عليها تلبية كل مطالبها وتأمينها علىٰ النحو الذي تريدُه..

لكنها أَبَتْ ذلك.

كان هذا أمرًا مدهشًا لي! فكيف للرجل أن يتنازل عن هيبته وعظمته ليستأذن زوجته في أمر محسوم، فالمرأة في مجتمعنا المصري لا يمكن لها بحال من الأحوال أن توافق علىٰ مثل هذه الزيجة ولو كانت كسيحة عمياء لا تقدر علىٰ القيام بأمورها وأمور بيتها، فضلا عن حاجات زوجها!

سألتُ مولانا باستنكار: ولماذا استأذنْتَها؟! ثم لماذا نَزَلْتَ علىٰ رأيها؟!

قال: هي شريكة حياتي التي أسهمت في بنائي حتىٰ وصلتُ إلىٰ ما وصلتُ إليه الآن، ولقد رضيتْ بالزواج مني في وقت رفض خالي أن يزوجني ابنته بسببٍ من فقري وحاجتي، وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي.

إلىٰ هذه الدرجة كان الرجل مقدرًا لزوجته محبًا لها، ولعل هذا مما يحسب له كما يُحسب لها، فإجلاله لها باستئذانها أمر يستحق الثناء، كما إن نزوله علىٰ رأيها يبين كيف كانت عنده أثيرة.

***

كان إيمان السيدة سعاد يقينيًا برسالة زوجها وبقَدْرِه، ومن ثم كانت تحاول جهدها أن تفرِّغه لمهامه العلمية علىٰ أن تتولىٰ أمور بيتها بنفسها، فقامت علىٰ تربية أولادها أفضل ما يكون، فنشأوا منذ نعومة أظفارهم علىٰ حبِّ اللغة العربية والقرآن الكريم.

إن الواحد منهم يكاد يتكلم العربية دون أن يلحن، فأما الدكتور أحمد فحصل علىٰ الدكتوراه في الاقتصاد من الولايات المتحدة الأمريكية بعد عدة سنوات من الاغتراب وهو الأكثر شبهًا بوالده خلقًا وخُلُقًا.

أما أنس فحصل علىٰ الدكتوراه في الزراعة من مصر بعد أن رفض دخول كلية الطبِّ، رغم حصوله علىٰ مجموع يؤهله لها بجدارة، وهو بطبعه متمرد ذو شخصية مستقلة يعطي نفسه حرية التفكير ولو كان ذلك خارج سرب أبيه، ولو أراد أن يكون أديبًا أو مفكرًا لكان له شأنٌ آخر.

ثم السيدة سمية التي تزوجت مبكرًا من الدكتور أحمد أبوالفضل نجل شيخه عبد السلام أبو الفضل قبل أن تتم دراستها الجامعية في كلية البنات، ولها مؤلفات دعوية وأدبية متميزة.

***

في ليلة من ليالي حقبة التسعينيات، جمع مولانا زوجته وأولاده، وطلب من كل واحد منهم أن يستحضر في نفسه أعظم ذنب ارتكبه في حياته

تعجَّبت الأم.. وتعجَّب الأولاد!

طالت لحظات الصمت

قال مولانا: هذه فرصة لتكفير الذنوب، اليوم بإمكان كل منكم أن يكفر عن أعظم ذنوبه وأكبرها..

تهامس الأولاد.. وسألت الزوجة عن الكيفية

لم يطل انتظارهم كثيرًا.. طلب مولانا تبرعًا للبوسنة والهرسك..

سارع الجميع إلىٰ التبرع.. فأغراه ذلك أن يطبق الفكرة علىٰ نطاق أوسع.

وجد حارس العقار، طلب منه تبرعًا، أعطاه راغمًا مبلغًا زهيدًا.

أخذ يتوسع شيئًا فشيئًا حتىٰ شمل رجال أعمال كبارًا في مصر وخارجها..

هكذا عاش الرجل مؤمنا بقضيته.

***

ظلت- رحمها الله- تصارع مرضًا يَفُتُّ في عظامها عدة سنواتٍ حتىٰ لبَّت نداء ربها في مستفتح أغسطس 2006م

أذكر ذلك اليوم الذي حمل في طياته دلائل إخلاص الرجل لزوجته حية وميتةً..

في جنازتها وقف الرجل خطيبًا، فأثنىٰ علىٰ محاسن أخلاقها ودينها، وقال عبارة أمَّـن عليها الحاضرون، فقد قال بأسىً: «كانت- رحمها الله- أكرمَ منِّي علىٰ أهلي»

في هذه العبارة اختزل الرجل حياة زوجته الوفية التي عاشت معه علىٰ السرَّاء والضرَّاء، وكانت حقيقة وحريَّةً بهذا الوصف، علامة في الكرم، تصل الليل بالنهار، طيبة النفس قريرة العين لإكرام ضيوف زوجها الذين يفدون من كل فجٍّ، وكثيرًا ما كان يتندَّر مولانا قائلًا: امرأتي من أكرم النساء وأسخاهن رغم مُنوفِيَّتِها، فقد كانت- رحمها الله- من إحدىٰ قرىٰ محافظة المنوفية.

انتهينا من مراسم الدفن والعزاء بقريته سندسيس، وعدنا في المساء بعد يوم شاقٍّ إلىٰ بيته بمدينة المحلة الكبرىٰ، وكان ثالثنا طالبٌ روسيٌ- لستُ أذكره- يقود السيارة..

لحظة من أصعب اللحظات.. ترجَّل من سيارته ليدخل بيته، فإذا هو خالٍ من زوجته بعد عِشرةٍ امتدت عدةَ عقود..

لم تكن قدماه تحملانه بالقدر الكافي..

لأول مرة أراه يغالب دموعه فتغلبه..

ولأول مرة أراه غير مهتم بشَعْره الأسود الكثيف المشرب بقليل من الشيب..

لقد انهدَّ ركن من حياته طالما أوي إليه..

طلب مني مصاحبته إلىٰ أعلىٰ لجلب بعض متاعٍ له..

اعتذرتُ.. فأنا لا أتمالك نفسي في مثل هذه المواقف.

ألحَّ عليَّ، فرفضتُ متوسِّلا.. لم يجد بُدًا من اصطحاب مُرافقه الروسي..

جلست في السيارة وقتًا لا أدرىٰ قدره، كل ما أذكره أنني أسندتُ رأسي إلىٰ الكرسي، أجتر من القديم ذكريات صارت في ذمة التاريخ.. وهالني أن باغتتني الذاكرة بمواقف جليلة لا تنسىٰ مع هذه السيدة صاحبة الفضل علىٰ تلاميذه وأصدقائه، بل وأهله أيضًا.

رحمها الله..

رحمها الله من زوجة صابرة مثابرة، وأمٍّ حنونة وفيَّة.

***

عُدْنا إلىٰ شقةِ العجوزة.. وفيها تغيَّر كلُ شيء.. يكفي أنه أصبح بلا زوجة..

أصبحنا نقتاتُ من المطاعم..

تناثرت قوائم المطاعم لتملأ أرجاء المنزل..

سرعان ما أحسَّ مولانا بالوحدة القاتلة التي حاول أن يملأها بالكتابة والتأليف، كنتُ أشعرُ به وأُشفق عليه..

لم يكن مناصٌ من مفاتحته في أمر زواجه..

- أستاذنا.. هناك أمرٌ لا أدري هل من حقي التحدث فيه أم لا؟!

- خير يا سيدي؟!

- باختصار يا أستاذنا.. لا يُمكنك أن تعيش فردًا في الحياة! أولاد حضرتك ربنا يبارك فيهم.. ولكنهم معذورون.. (سمية) في بيتها، و(أنس) في عمله وكلاهما في المحلة، و(أحمد) في أمريكا يشقىٰ بك وبنفسه وبأولاده هناك.. وأنت غالب إقامتك بالقاهرة.

- يعني يا أخي أروح أتجوز واحدة تبهدلني في السنِّ ده؟! أنا مش عايز أكرر تجربة والدي- الله يرحمه- الذي أخطأ بزواجه بعد أمي.

- وليه يا أستاذنا ما تشوفش واحدة كويسة، وتتحرىٰ الأمر عسىٰ الله أن يهديك إلىٰ ما تأنس به نفسك؟!

واصل كلامه بعد ضحكته المعتادة ونظرته المميزة من أعلىٰ نظارته الطبية وقال:

- والله يا أخي إنت بتضيق عليَّ الخناق.. علىٰ العموم احتمال تسمع ما يسركّ قريبًا.

- طيب يا مسهل

- يا أخي الله يهديك سايبين الشغل وقاعدين نتكلم، قوم يا مولانا شوف اللي وراك.

أيقنت حينها أن مولانا قد حدد وجهته وشرع في الزواج، غير أنه لم

يخصني وقتها بالتفاصيل.. لقد علمتُها بعد ذلك منه.

***

لم تمر أيامٌ حتىٰ فوجئت به يتصلُ بي من مكان غير معلوم.. كان يطلبُ عملا لا أذكره.. ربما كان شراء كتاب.. شكَّ الراوي.

سألته: أين أنت يا مولانا؟!

- موجود يا أخي

- في القاهرة؟

- لأ.. خارج القاهرة

- في المحلة ولا إسكندرية؟

- اسمع .. أنا في المنيا.. وتزوجت.

- ما شاء الله، ما شاء الله.. ألف مبروك يا مولانا، يعني في شهر العسل حضرتك من غير ما تقولي!

- هو اللي يعرفك يقضي شهر عسل..هههههه؟!

- ماشي يا مولانا بس مين يا ترىٰ؟!

- يا أخي الله يهديك.. بنت خالي

- آآآآآآآآآه.. ما شاء الله.. الحب الأول

- تحشَّم يا أخي

- أي حشمة يا مولانا؟! أمال فين طوق الحمامة بتاع ابن حزم؟!

- علىٰ العموم مبروك.. وما تتجوزش تاني من ورايا

- والله إنت عجيب.. فعلا 100 نوري ولا دمنهوري

- وبيقولوا يا أستاذنا 100 حاوي ولا محلاوي

سعد الرجل بزيجته الجديدة السيدة نشوىٰ التي مـلأت حياتـه بعـد فراغ، كما أحسَّ الرجل بنعمة الله عليه، فلم تكن هذه الزيجة إلا المرأة التي أحبها شابًا يافعًا، غير أن فقره حال دونها، وها هو اليوم وقـد أغنـاه الله من فضله وردَّها عليه.

أذكر أنني عندما قابلته لأول مرة بعد زواجه قلت له: وجـب الـشكر عليك مرارًا وتكرارًا، وما أراه من أمر زواجك– والله أعلـم- هـو دليـل محبة من ربك، فقد أعطاك ما حُرمت منه قبل ذلك.. أحببتَ امرأة ولـم تتزوجها لفقرك وحاجتك، فأغناك من فضله وزوَّجك إياها.

لم يكن زواجه بالأمر الهيِّن، فللسيدة أولاد كبار لا شك سيرفضون الفكرة، والمجتمع لا يرحم؛ فكيف تتزوج امرأة تخطَّت سنِّ المعـاش ولها أحفاد..

وتـدخَّل زوج أختهـا الـدكتور محمـد الـسعيد إدريـس– المفكـر والكاتب الناصري المعروف- لإقناع الأولاد (أسامة) و(داليا)، فكـان لـه مـا أراد، وقالـت الـسيدة لأولادهـا: لـيس مـن المـروءة أن أتـرك ابـن عمتي في وقت يحتاج إليَّ فيه، كما إنه صاحب فضل عليَّ!

وافـق الأولاد، ونجـح مولانـا بعـد ذلـك في إذابـة الفجـوة بينـه وبـين أولادها حتىٰ صاروا يأتنسون إليه ويأنس بهم.

والحقيقـة أن الـسيدة (نـشوىٰ) طيبـة القلـب نقيـة الـنفس، تتلقـىٰ الجميع بابتسامتها العريضة المعهـودة، ولـم تكـن مهمتهـا بالهينـة، فلـم تلبث حتىٰ زاد المـرض علـىٰ الرجـل، فـصارت زوجـة وممرضـة في آنٍ

واحدٍ، ناهيك عن شئون المطبخ الذي يعمل بكامل طاقته في بعض الأحيان ما يقرب من عشرين ساعة!

كان البيت أشبه بسلسلة مطاعم كبرىٰ!، حتىٰ خدمة التوصيل للمنازل كانت متوفرة لدىٰ منزل عبد الحليم عويس!.

فقط عبد الحليم عويس..

الطائي.



رحمه الله كما أحبَّني..

> **«الإنسان نفخة من روح الله، وبغير الروح يصبح الإنسان مادة أو عقلا مجردًا من معانيه الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم»**

مُذ رأيته لأول وهلة تسرَّب إليَّ إحساس غريب، إنه يراني بمنظار مختلف عن الآخرين، بمن فيهم أنا..

نعم، أعترفُ أنه كان يؤمِّل فيَّ مالم أؤمِّلُهُ في نفسي..

مشكلتي الحقيقية التي فطن لها الرجل أنني شخصية غير طموحة..

نعم، بالفعل.. غير طموحة.

أُقدِّم غيري علىٰ نفسي في مواضع يرىٰ البعض غير ذلك، حتىٰ عملي بالإعلام والقنوات الذي امتد سنواتٍ، قنعتُ فيه بعملي كمعد للبرامج خلف الكواليس، رافضًا كل محاولات الترقية، بل والعمل كمقدم للبرامج، اللهم إلا في العام الأخير وبضغط من الزملاء ومجلس الإدارة معًا، قبل استقالتي وترك الإعلام بقَضِّهِ وقَضِيضِهِ..

لم أرني قبل ذلك الوقت مسئولا إداريًا أشغل نفسي بحضور فلان وانصراف فلانة، وتستيف الملفات، وضبط الفواتير.. أمرٌ يضيق به صدري.

فماذا كان يريد لي مولانا؟!

يريـد لـي مولانـا زيجـة مريحـة ماديًـا تختـصر طريقـي إلـىٰ المـال، تكفيني عناء البحـث عـن شـقة وسـيارة، وتـضمن لـي دخـلا ثابتًـا حتـىٰ أتفرَّغ لحياتي العلمية..

اقترح لي عروسًا، وثانيـة، وثالثـة، علـىٰ النحـو الـذي ذكرتُـهُ في هـذا الكتاب.

حتمًا لم يكن رأيه يروق لي في هذا الشأن.

يُفـسِّر مـولاي ذلـك بـأنني مـا أزال أحمـل سـلوكيات الفلاحـين الموروثة، ومنها الأَنَفَةُ في غير موضعها، وصلابة الرأي..

كلَّما حدثني عن عروس غنية، حدثتُه عـن القوامـة، فيبـادرني قـائلا: (فإن طِبْن لكم عن شيءٍ منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا)

رفضتُ كلَ محاولاته، فاتهمني بالعقوق

رحمه الله كما أحبَّني.

***

قبل مصاحبة مولانا لم تكـن لـي سَـابِقَةُ قَـدَمٍ في النـشر الـصحفي إلا من مقـالات كنـت أرسـلها أثنـاء دراسـتي الجامعيـة إلـىٰ بريـد القـراء في صحيفة (آفاق عربية) وبعض الصحف الأخرىٰ علىٰ استحياء.

طلب مني بعض المقـالات لمجلـة (الـدعوة) الـسعودية الـشهيرة، كنت أكتب المقال فيدفع لي مقابلـه بمجـرد تـسليمه، سـواء نُـشر أم لـم يُنشر، فبعض الموضوعات لم تكن تتفق مع سياسة المجلة، ومع ذلك يشجعني علىٰ كتابتها، وبعد فترة لاحظت أنَّ كَمَّ المقالات التـي كتبتهـا لا يتناسب مـع المنـشور منهـا، فلمـا سـألته عـن ذلـك قـال بـأنَّ للمجلـة

سياسة معينة، حيث يمكنها تأجيل المقالات حتىٰ يمر عليها الحَوْل والحَوْلان ثم تنشرها في ملفات علمية.

لم أقتنع بالإجابة، لكن تبين لي بعد تفكُّر وتدبُّر أنه يدفع لي مكافأة المقالات من جيبه الخاص تشجيعًا لي دون أن يخبرني، وإلا فلماذا لم يفعل ذلك مع الآخرين؟!

كان يطلب أن أقرأ عليه ما كتبتُ ويُقوِّمه:

لو وضعتَ كلمة كذا مكان كذا لكان أفضل..

ولو تخفَّفتَ من عبارة كذا لكان أجمل..

ولو غيرتَ عنوان المقال إلىٰ كذا لكان أوقع..

هكذا تعلمتُ قيمة اللفظة ومراعاة السياق.

يا لها من مروءة نادرة!

***

كان يوم الاثنين..

اتصل بي ليسألني إن كانت لي أعمال أدبية من شعر أو قصة أو رواية أو مسرحية أو نقد أو نحو ذلك؟

أجبته بالنفي، فلست من الشعراء ولا من القُصاص، ولا طاقة لي بالنقد، وإن كان جزءًا من دراستي وتعليمي الجامعي، وإنما أنا من الغاوين الذين يتبعونهم، وليس لي من الكتابة إلا المقالات والدراسات العلمية.

ضحك ملء شدقيه.. وسألني عن محتوىٰ بعض المقالات

فأخبرتــه، فطلــب مني اصــطحاب (مــذكرات نــائم) و(المقامــة الشارونية)، و(أين المحتسب؟!)، وعدد من الصور الشخصية وبعض أوراقي الرسمية.

سألته: لماذا؟!

لكنه لم يُجب كعادته، واكتفىٰ بقوله: بعدين أقول لك يا أخ.

بعد المغرب كنا في شقة بمنطقة (باب اللوق) بوسط القاهرة..

كراسي.. مدعوون.. حضور من كل الفئات وإن غلب علىٰ أكثرهم الشيب..

علىٰ استحياءٍ وُضعت لافتةٌ صغيرةٌ مكتوبٌ عليها: رابطة الأدب الإسلامي.

علمت أن لقاءً أسبوعيًا يجرىٰ في مثل هذا اليوم يجتمع فيه أعضاء الرابطة لعرض إبداعاتهم في مجالات الأدب المختلفة.

هناك قابلت لأول مرة الشاعر الراحل عبد المنعم عواد، والشعراء المبدعين: وحيد الدهشان، محمد فايد، محبوبة هارون، نوال مهنَّىٰ، وعبد الرازق الغول، والشاعر والناقد النوبي الودود محي الدين صالح، والصديق الكاتب الصحفي محمد القوصي، والخطاط الكبير محمد أبوقمر الذي كتب المصحف الشريف مرتين.. وغيرهم كثير..

بدأ الأستاذ عبد المنعم عواد ببعض المقطوعات الشعرية التي تشبه إلىٰ حد كبير شعر أحمد مطر، ثم توالت القصائد..

فاجأني مولانا بقوله: تفضل يا أستاذ وليد.. اقرأ شيئًا مما كتبت..

- «ليس لدي ما أقوله أستاذي الكريم، إنما جئتُ مُستمعًا لا مُلقيًا» قلتها.. في بالغ حرج..

أصرَّ مولانا ومعه بعض الحضور..

متثاقلا.. أسِفًا.. قُمتُ.

قدمتُ أعذاري بين يدي الجالسين، فلستُ من المبدعين، ولم أبرح المقال إلا لكتابة الأبحاث العلمية، ثم قرأتُ (المقامة الشارونية)، وهي مقالة صغيرة كتبتُها علىٰ غرار المقامات المعروفة في التراث العربي تتحدث عن موقف الحكام العرب من اعتداءات الصهاينة المتكررة علىٰ الفلسطينيين..

لقد فتح لي مولانا آفاقًا جديدة من حيث لا أدري.

لم يمر قت طويل حتىٰ أعلنت الرابطة عن إقامة مؤتمر عن الأديب مصطفىٰ صادق الرافعي، فدفعني مولاي دفعًا إلىٰ المشاركة بدراسة حول أدب الرجل الذي طالما عايشته وعايشني حتىٰ صار (وحي القلم) مرجع حياتي الأول.. اقترحت موضوع (ظاهرة الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي) ، فتشاءم مولانا من العنوان وقال: يا أخي حرام عليك، دي تالت دراسة تكتبها عن الفقر، حرام عليك! أخشىٰ أن يكون لك نصيبٌ من اسمها!

أنجزتُ من الدراسة، وأتيح لي أن أكون في الجلسة الأخيرة التي ترأَّسها مولانا، فجاورته علىٰ المنصة، ولا أدري إن كان ذلك توقيفا أم توفيقًا!

فرغتُ من عرض ورقتي، وفُتح باب النقاش، فعقب أحد الحضور

علىٰ ما طرحته، وهمس مولاي في أذني متسائلا إن كنتُ علىٰ استعدادٍ للردِ أم يتكفل هو بذلك؟ قلت: بل أردُّ، وكان التوفيق من الله تعالىٰ حليفي، وسعد بي رحمه الله سعادة بالغة.

ثم إن رابطة الأدب الإسلامي نشرت الدراسة في عددها الخاص عن الرافعي، لكنه جاء مشوهًا بدءًا من العنوان، ومرورًا بحذف عناصر وفقرات كاملة، مما أضر ببنية الدراسة.. سامحهم الله.

ويوم أن نُشر أول مقال لي بالأهرام فرح مولانا وأحسَّ أن توجيهاته قد أثمرت إلىٰ حدٍ ما، لكنه ظل يعيب عليَّ كسلي وقِصَرَ نَفَسَي، وطالما ذكَّرني بأنه نشر أول كتبه «قصص إسلامية» وقت أنْ كان طالبًا بالمعهد الأزهري..

***

كنتُ دائمًا أتحجج قائلا: أنتم جيلٌ محظوظ، عشتم بعض تجربة جمال عبد الناصر مع الاشتراكية والقومية والتأميم، فأدركتم الحقيقة المُرَّة مع النكسة، وسُرعان ما سعدتم بالحرية التي منحكم السادات إياها، ولو استمر عبد الناصر أو سياسته لكان وضعكم مختلفًا، فمثلا أنت كتبتَ بحرية في مجلات (الاعتصام) و(لواء الإسلام)، فلما عزمتَ السفر وجدتَ أكثر من فرصة، وفي السعودية كنتَ تمارس عدة أعمال بالتوازي في وقت ندرت فيه المواهب، فلا تقارن جيلنا بجيلكم؛ لأننا وُلدنا وتربيّنا في حُكم سُلطوي قمعي كتم أنفاسنا وعدَّها علينا عدًا، والفرصُ فيه أندرُ من الزئبق الأحمر.

كان مولانا يظن أن الظروف واحدة، ويمكن لي أن أشق طريقي

داخل مصر وأنجز ما لم ينجزه أحد!

ومع ذلك لم تكن تجربتي مع الدكتور الثنيان– كما أسلفتُ– هي المرة الوحيدة التي رشحني فيها للعمل بالخارج، ففي العام 2011م دُعيت إلىٰ مؤتمر في كلية الدراسات الإسلامية بالدوحة، وعلم مولانا فأملىٰ علىٰ الحداد خطابًا للدكتور القرضاوي يُشيد بي إشادة بالغة، ويطلب منه توفير عمل لي هناك في قطر.

أعطاني الخطاب فتعجبت!

إنني لم أطلب منه ذلك، وليست لدي رغبة في السفر لا سيما بعد ثورة مصر الحقيقية والرغبة في التغيير.

كنت أؤمل في وطني أكثر مما ينبغي!

لم أناقشه في الأمر، ولم تكن ظروفه الصحية لتسمح بذلك وقد زادت عصبيته بسبب من المرض الذي صار أشد وطئًا من ذي قبل، واكتفيتُ بوضع الخطاب في الحقيبة تبرُّكًا، ولم أك أنتوي بأية حال أن أعطيه الشيخ القرضاوي، رغم أني كنت بصدد مقابلته لتصوير لقاء معه لصالح إحدىٰ القنوات، وحدث أني اتصلت بمدير مكتبه المثقف وليد أبو النجا لأرتب موعدًا للتصوير فكان الشيخ علىٰ سفر، ولم يكن الخطاب الأول الذي كتبه موصيًا بي، فقد كان مجاملا لمن يعرف ومن لا يعرف، فقبل ذلك بسنوات أخبرتُه أني بصدد الذهاب إلىٰ الدكتور عبد الصبور مرزوق الأمين العام للمجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية– رحمه الله– لأعطيه نسخة من كتابي (أبوعبيدة بن الجراح: الرجل والسيف) علَّهم يوافقون علىٰ نشره، فآثر أن يكتب خطابًا

يزكيني فيه بما ليس فيَّ، وهو ما رحَّب به الدكتور مرزوق.

ثم إني اتصلت به فيما بعد فأخبرني أنه قرأ نحو ثلثي الكتاب وأجازه للنشر رغم عدم إتمامه، وأنه ماضٍ في قراءته حتىٰ النهاية، لكن يد القدر كانت أسرع، فقد اشتد المرض عليه قبل أن يبلغ الكتاب أجله وينزل ضيفًا علىٰ رب كريم، كما اشتد المرض علىٰ المجلس الأعلىٰ الذي أوقف صدور سلسلة (أعلام الإسلام) بعد نحو عددين من صدورها.

***

رغم أن مولانا كان يقول دائمًا: إن الشهادات مجرد ألقاب قد لا تُعبِّر عن حقيقة صاحبها، ورغم رفضه التام أن يتعدىٰ الطالب الأجنبي الوافد إلىٰ مصر مرحلة الليسانس ويرىٰ أن وطنه أولىٰ به، وعليه أن يوجِّه ما يبذله من جهد في الماجستير والدكتوراه إلىٰ الدعوة في وطنه، فماذا سيستفيد منه وطنه بعد أن يعود إليهم وقد تخطَّىٰ سن الأربعين..

أقول رغم ذلك رحَّب بشروعي في استكمال دراستي العلمية، ويوم أن هممت بتسجيل رسالتي في تفسير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، اتصل بأحد الناشرين يطلب منه نسختين من تفسير التحرير والتنوير، واحدة له، وأخرىٰ لي.

ثم إنه سألني عن المشرف فقلت له: إنهما مشرفان، مولانا الدكتور حسن طبل الأستاذ بكلية دار العلوم، والدكتور محمد عبد السلام بجامعة عين شمس، فطلب مني الاتصال بالدكتور طبل، ولم تكن بينهما سابق معرفة، فعرَّفه بنفسه، وأوصاه بي خيرًا، وكان الدكتور

طبل مهذبًا كعادته فرحَّب به بشدة، وكذلك فعل مع الدكتور محمد.

***

لم يكن مولانا يستنكف أن يقترن اسمه باسم تلميذ من تلاميذه، ويرىٰ أن ذلك لن ينقص من قدره شيئًا، وفي نفس الوقت يرفع من أسهم تلميذه، وهو الأمر الذي فعله مع الصديقين الدكتور يحيىٰ العباسي والدكتور عبد الوهاب القرش اللذين شاركا معه في عدة أعمال رغم حداثة سنهما آنذاك.

ظل يدفعني إلىٰ النشر دفعًا، لا سيما أن لي دراسات مُحكَّمة فازت بعدة جوائز علىٰ مستوىٰ الجمهورية والوطن العربي أيضًا، حتىٰ قمت بنشر كتاب عن أبي عبيدة بن الجراح- رضي الله عنه- بعدما مهره بمقدّمة بديعة.

وفي ليلة مشتية من ليالي مدينة نصر جلسنا نقلب بعض كتبه وأوراقه ونتحدث عن المشروعات الفكرية المقبلة، ترددتُ في طرح اقتراح يراودني منذ فترة وأستحي..

تجاسرت وحدثته في الأمر.

كان قد كتب جزءًا عن الفكر السياسي عند الإمام ابن حزم، وكتبتُ دراسة علىٰ غرارها عن «الفكر السياسي عند الإمام أبي حامد الغزالي»، وطالما فكرت في ضمهما في كتاب واحد يجمعني باسم أستاذي، فألقيت بالاقتراح كالحَجر متوقعًا الرفض بالحسنىٰ، أو الإرجاء، فكيف لمثلي أن يقرن اسمه به.

لم يرد عليَّ وواصل عمله!

لم أجد ما أقوله.. تمنيتُ لو انشقت الأرض وابتلعتني من حينها، لم أندم علىٰ شيء أشد من ندمي في هذه اللحظة..

كان عليَّ أن أعرف قدري جيدًا، فما أنا إلا تلميذ لا يرتقي إلىٰ مثل هذه المرتبة العليا!

ثم بدا له أن يتصل بشخصٍ ما

وكانت المفاجأة!

إنه الناشر الأستاذ محمد أبو عجُّور

لقد أبلغه برغبته في نشر كتاب بعنوان (الفكر السياسي بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي)

كدتُ أطير فرحًا.. كل ما أتذكره أن النوم لم يجد إلىٰ جفوني سبيلا في هذه الليلة..

في اليوم التالي اتصل بي صديقي عبد المنعم الصاوي ليخبرني أن الدكتور قد أملىٰ عليه مقدمة الكتاب ودفع به إلىٰ الناشر..

وطُبع الكتاب.

***

لم تكن تلك هي التجربة الوحيدة للتأليف المشترك مع الدكتور عويس، فقد شرعنا في مشروع علمي كبير مع المفكر الدكتور باسم خفاجي يستوعب مشاريع النهضة الفكرية في العصر الحديثة منذ محمد عبده والكواكبي وانتهاء بمالك بن نبي والشيخ محمد الغزالي.

كنتُ والصديق الدكتور أحمد محمود نقوم علىٰ مراجعة الكتاب،

ففضلا عن استكتابنا في أجزاء كثيرة من الموضوع عُهد إلينا بمتابعة أعمال الآخرين وإعادة صياغتها وتقويم ما قد يكون من عوجها، وكان ضمن المستكتبين الصديق الشاعر وحيد الدهشان والدكتور ممدوح رمضان، والصديق السنوسي محمد، والدكتور عبد الرحمن هاشم، غير أنَّ المشروع توقف بسبب من اختلاف وجهات النظر بين عويس وخفاجي.

ثم بدا لمولانا أن يصدر كتابا تحت عنوان (المجرمون مائة) فجعلنا نحصي المجرمين علىٰ مدار التاريخ الإنساني كلِّه، بدءًا من قابيل وحتىٰ حسني مبارك، وكان الدكتور أحمد محمود حاضرًا وكذا الحداد، فوصلنا إلىٰ قائمة بلغت تسعة وتسعين، وحِرنا في الشخصية المائة..

طال الانتظار بالحداد الذي تأخر علىٰ زوجته كثيرًا، فما كان منه إلا أن قال: لو حابين تحطوني أنا الشخصية رقم 100 ما عنديش مانع بس أمشي!

ضحك مولانا حتىٰ سعل، وضحكنا جميعًا..

تم توزيع الشخصيات، شخصيات يكتبها مولانا، وأخرىٰ يكتبها الدكتور أحمد، والحداد، والسنوسي محمد، وكاتب هذه السطور..

وبدأ المشروع، وتعجَّل مولانا، فأسند الكتابة إلىٰ أشخاص دون المستوىٰ اللائق بالكتاب، وعمد بعضهم- سامحهم الله- إلىٰ الإنترنت فجمعوا المادة ولم يتصرفوا فيها إلا قليلا، فجاءت كتاباتهم سمجة ممجوجة!

توقفتُ والصديق أحمد محمود عن الكتابة بعد أن لمسنا ذلك

بأنفسنا، لكن مولانا أصر علىٰ المُضي في طريقه، فقد كان علىٰ عجلة من أمره، وذلك دأبه في أعوامه الأخيرة التي تمكَّن فيها المرض من جسده.

كان أحوج ما يكون إلىٰ إثبات ذاته ومقاومة مرضه بإصدار كتاب جديد..

مع إصراره لم نجد بُدًا من الاعتذار سويًا، بعد أن كتب كلٌّ منا بعض مادته وقوّمنا البعض الآخر من إسهامات الآخرين، وطلبنا منه ألا يثبت اسمنا علىٰ غلاف الكتاب، بعدما حذرناه من تدني مستوىٰ الكتابة، لكنه أصرَّ إصرارًا عجيبًا.. فعذرناه لظروفه الصحية.

صدر الكتاب وقد خلا الغلاف من اسمينا، لكنه لم ينس أن يشكرنا في المقدمة علىٰ جهدنا في إنجاز الكتاب.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فقد كان– رحمه الله– معنيًا بالقراءة والكتابة حتىٰ الساعات الأخيرة من حياته، ولم تكن الغيبوبة الكبدية لتُغيِّبه كليًا، حتىٰ إن البعض ليتعامل معه دون أن يدري أنه في غيبوبة.

قريب من ذلك أنه وجَّه البعض إلىٰ جمع مادة علمية لكتاب (دعاة لكن أدباء) يتحدث فيها عن الرافعي وعلي طنطاوي وباكثير وغيرهم من رموز الأدب الإسلامي، وبالفعل تم تجهيز المادة ووُضعت في ملف.

ثم وقَع علىٰ هذا الملف في ليلة فاتصل بأحد الناشرين يستدعيه علىٰ الفور، وكان بحضرته أحد التلاميذ، فأملىٰ عليه مقدمة للكتاب، وما إن حضر الناشر حتىٰ دفع إليه بالملف ومعه المقدمة التي كتبها

علىٰ عجل..

ونُشر الكتاب، وكانت كارثة!

لقد ظن مولانا أن الكتاب قد جرىٰ فيه القلم وأنجزه بينما هو في الحقيقة بعض أوراق مرجعية متناثرة من هنا وهناك..

ولفتنا نظر الناشر لهذا الأمر فأوقف توزيعه، لكني علمت بعد ذلك أنه باعه تجار الكتب بسور الأزبكية، فحزنت لذلك أشد الحزن، ونفس الأمر حدث مع كتاب (ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة).

ولله في خلقه شؤون.



المُنتَهَى..

«أما أنتم فطوبىٰ لكم، ستأتون فىٰ ربيع زاهر كالجنّة»

كان خلقًا آخر في محاربته للمرض وتحديه له..

لم يكن المرض سجنًا لقوته، لكنه كان باعثًا له علىٰ الهمة والنشاط..

أصحاء بجانبه كنَّا.. لا نقوىٰ علىٰ العمل كما يقوىٰ، ولا علىٰ الإنجاز كما تعوَّد.

لله درُّه!

قليلون هم مَنْ يتحدَّون المرض..

وكثيرون مَنْ يتحدَّاهم المرض، فما إن ينشب أظفاره حتىٰ تراهم شخوصًا غير الشخوص، فينأىٰ عنهم الأمل، كأنما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون!

تذبل أوراقهم، كأنما أقبل خريف العمر في غير إدبار..

يخضعون للأشياء بعد أن كانت تخضع لهم..

ليس مولانا من هؤلاء!

***

أضحىٰ نزيلا مميزًا علىٰ العيادات الطبية والمشافي..

وأضحت الغرفة 406 بمشفىٰ كليوباترا بضاحية مصر الجديدة

مصيفًا له ومشتىٰ في كل شهر تقريبًا..

يصحبه محمد الحداد أو رضا الميداني أو مصطفىٰ غنام، وغالبًا ما كنت أبيت معه في المشفىٰ لكوني من سكان مدينة نصر.

لم يك مطيعًا لأوامر الأطباء ولا مكترثًا لإرشاداتهم..

كثيرًا يقول: أنا طبيبُ نَفْسِي، أعلم ما يضرها وما ينفعها.

لم يكن ذلك صحيحًا علىٰ الإطلاق، فلو تركنا نفسَه لنفسِهِ لأهلكها!

لا يتناول العلاج إلا بعد لأيٍ ومشقةٍ!

أما الطعام، فيأكل ما يروقه، لا ما يروق الطبيب.

ليس بإمكانك- مثلا- أن تثنيه عن استعمال كميات غزيرة من ملح الطعام المضر، أو الأطعمة المسبوكة، ولا تنفع معه شفاعة الشافعين!

حتىٰ صديقه الدكتور عبد الله عياد- الجراح المعروف- يضج بتفنُّنه في عصيان أوامر الأطباء..

كثيرا ما قال له: أنا حاسس إنك مش أستاذ تاريخ؟! ما تكونش أستاذ كبد يا عبد الحليم؟!

التمسَ العلاجَ في كل بلد يزوره بدءًا من الأردن وتركيا وأمريكا والسعودية واليمن.. حتىٰ السودان وهي آخر ما زار.

لكن أمرًا عجيبًا كان يحار أمامه الأطباء:

ما كل هذا التحدي للمرض؟!

وكيف يتأتىٰ لأحدٍ أن يصارع المرض ويصرعه؟!

لم يقل مرة إني مريض..

غاية ما يقوله إذا اشتد عليه الألم:

«يا لطيف، أنا عبدك الضعيف»

***

ها هو يهم بدخول المشفىٰ، فتجمع له زوجته ما يحتاج إليه من ملابس وغيرها، بينما ينشغل هو بحمل الكتب، والأوراق.. وبعض الأقلام!

كانت القراءة والكتابة ديدنه حتىٰ في العناية المركزة، ولن تفلح محاولات الأطباء ولا الأحبَّاء منعه من القراءة والكتابة..

كان الكتاب والقلم معشوقيه.

في مشفىٰ (ياسين عبد الغفار) الشهيرة لم يسمحوا له باصطحاب الكتب ولا الأوراق.. فاحتال حتىٰ غادرها علىٰ حين غفلة من حَرَسِها..

عجيب أمر الرجل!

في كل مرة يدخل فيها العناية الفائقة يخرج كأن لم يمسه ضرٌّ ولا نَصَبٌ!

طالما تعجبنا لذلك..

حاد الذكاء كان، وقَّاد الفطنة كان، يرىٰ في أعيننا الدهشة فيبغتنا بقوله: لا تتعجلوا.. فلم يحن الوقت بعد، أظن أنني سأعيش سنواتٍ أُخر.

يا إلهي!

كان الأمل ينير دروب حياته كشاب عشريني متفائلٍ بحياة رغيدة!

***

آنسنا منه تشبثًا بالحياة لا لشيء إلا لخدمة الدين والعلم!

طالما سمعناه يلهج بالدعاء قائلا: «اللهم بارك لي في وقتي»

أوهمناه بأننا أرسلنا التقارير الطبية إلىٰ الصين.. لزراعة كبد جديد.. وأن الموضوع يحتاج إلىٰ وقت لتوفير المتبرع، ففرح لذلك واشتهش كثيرًا..

وأوعز الحداد إلىٰ الأطباء أن يوهموه أيضًا، فكان كلما عاود الطبيب ازداد صحةً وألقًا.. وزاد الطبيب تأكيدًا أن الرجل يعيش أيامًا معدوداتٍ..

غريب أمر الرجل!

لم يكن ليخضع.. حتىٰ لسنن المرض.

***

من عجيب ما رأيت أنه ظل في غيبوبة مدة ثلاثة أيام ساكنًا لا يُحس فيها بمن حوله.. ظننا أنه الفراق، وتأهبنا لذلك.

ثم كانت الإفاقة!

لقد دبَّت فيه الروح ثانية!

رأىٰ دهشتنا فقال: أظننتموني سأقضي؟! والله منذ أيام وأنا أُفسر آيات الله تعالىٰ وأعيش في رحابه، فهَلُمُّوا إليَّ بالقلم والورق،

تذكرت حينها يوم أن أدركته الغيبوبة في السودان، كان يقول: أنا هنا في الجنة فلا تخرجوني منها..

ألا تصدقوني؟!

والله إني لفي جنة النعيم..

كنا نظنها من تأثيرات الغيبوبة..

لكنها لم تكن كذلك..

تُرىٰ هل رأىٰ مقامه في الجنة هناك؟!

ربما!

***

قبل رحلة السودان الأخيرة، ساءت حالته كثيرًا، أصبح يغيب عنا أكثر ما يحضر.. قاتل الله الغيبوبة!

لن أنسىٰ ما حييت– ذلك اليوم..

حملناه علىٰ كرسيٍّ لنخرجه إلىٰ السيارة، فتعثر أحدنا فوقع منَّا علىٰ الأرض..

تألم كثيرً.. ، تألمنا أكثر وأكثر، فقد كان في عالم الغيب وكنا في عالم الشهادة..

لم أتمالك نفسي!

فما رأيته بهذا الضعف والوهن..

رآني أبكي.. فبكىٰ!

مد يده يربت بها علىٰ كتفي..

حانت دمعة فشقت الخد كأنها إعصار فيه نار..

هرولتُ إلىٰ الداخل.. ارتميتُ فوق سريره.. أخذتني نوبة بكاء مرير ارتوتْ منها الوسادة.

***

عاد مولانا سيرته الأولىٰ..

هو في الغرفة 406 بمستشفىٰ كليوباترا..

حوله الكتب والأوراق المتناثرة والأقلام ذات الألوان المتباينة.. يُملي عليَّ ساعة.. ويأتيه الحداد فيُملي عليه.. وهكذا..

تدهورت الحالة أكثر.. كان لزامًا أن يُحجز في العناية الفائقة..

مكث فيها ساعات حتىٰ أفاق.. لكن الحالة لم تستقر..

دبَّت الحياة في أوصاله مرة أخرىٰ.. نزع التنفس الصناعي.. وفكَّ ما اتصل به من أجهزة طبية.. عبثًا حاولت الممرضات، فالأطباء أن يثنوه عن ذلك فلم يفلحوا..

لما كان يوم الأربعاء، طلب من الحداد أن يكتب ما يُمليه عليه..

ليس مقال التبيان فقط.. لكن ثمة مقالات أخرىٰ ورسائل عديدة..

أوصي فيها بمصر خيرًا..

ووجَّه رسائل أخرىٰ إلىٰ التيارات الإسلامية.

وإلىٰ مرشحي الرئاسة.. نصحهم بأن يتقوا الله في مصر.

كأنه يعلم ما سيكون من أمرهم!

لم ينس أن يناشد الحكام العرب وقف حمامات الدم والكفَّ عن

قمع شعوبهم..

طالب بإتاحة الفرصة أمام الإسلاميين لتولي السلطة ومساعدتهم للنهوض بمصر..

كان- بلا ريب- صاحب قضية.

***

جئته ومعي الصديق الدكتور أحمد محمود فطلب منا أن نجتهد في عمل قائمة بمائة شهيد منذ ظهور الإسلام حتىٰ ذلك الآن!

وعدناه أن نقوم بذلك، لكنه ألحَّ أن نُملي علىٰ الحداد ما لدينا..

جلسنا نعتصر الذاكرة وهو يسبقنا في اقتراح أضعاف ما نقترح..

وصلنا العدد أربعة وستين.. ثم توقفنا.. وعدناه بأن نتم ذلك الأمر..

كان متعجلا لإخراج موسوعة (الشهداء المائة) كما أصدر (المجرمون المائة).

في اليوم التالي تحسَّنت حالته قليلا، وسرعان ما ألحَّ في الخروج، فأجابه الأطباء!

ثم بدا له أن يذهب إلىٰ مسقط رأسه بالمحلة يوم الجمعة..

وهناك قابل أحد الأطباء الذين كانوا يعالجونه في مراحله الأولىٰ، فبادره قائلا: أراك مريضًا جدًا يا دكتور.

لم يكترث له، وأطرق قليلا ثم قال: أنا بخير، والحمد لله، وقريبًا سأزرع كبدًا جديدة!

ابتسم الطبيب ابتسامة صفراء ثم فَجَأَة:

ما خلاص يا دكتور فات المعاااااااد! أنت في سنٍّ لا يسمح لك بهذا، ولو سمح السنُّ ما سمحت الحالة الصحية.

ما أغباه من رجل!

أنُزِع منه عقله؟!

بل إنسانيته..

بل هما معًا!

كان وقع كلامه أثقل من الجبال الرواسي..

لقد حطَّم آمال الرجل الذي طالما عاش يتولىٰ إلىٰ ظلِّ الأمل..

تفصد جبينه عرقًا،

دارت به الأرض،

خارت قواه،

لم تحمله قدماه..

لحظات.. ثم دخل.. في غيبوبة..

اتصل بي الحداد، فغادرت إلىٰ المحلة الكبرىٰ من فوري

طيلة الطريق.. تخونني دموعي.

***

يا له من يوم عصيب..

ليس من عادتي أن أراه في العناية الفائقة..

تراجعتُ خطواتٍ إلىٰ الوراء..

- «انظر إليه فربما كانت المرة الأخيرة» دفعني الحداد قائلا..

تقدمت خطوة.. تراجعت خطوتين.

أغمضت جفوني.. فتحتها..

لم أستطع التقدُّم أكثر.. تسمَّرت قدماي..

نظرت من خلف اللوح الزجاجي السميك.. علته غشاوة لم تنقشع.. ويا لهول ما رأيت!

جسده النحيف ممددٌ علىٰ السريرٍ .. تعلق به الأجهزة من كل جانب.. المؤشر الأخضر يتحرك علىٰ استحياء..

ما أشد بياض وجهه في ذلك الحين!

يا رحمة الله لعويس..

ألا يرانىٰ؟!

ألا يسمعني؟!

ألا يحدثني؟!!

أرجوك يا مولاي!

أسمعني صوتك، ولو تعنيفًا!

امنحني منك نظرة، ولو ساخِرة!

أشر إليَّ، ولو بسبابتك!

أين نشاطك سيدي؟!

أين قوتك؟!

بل أين عنفوانك؟!

لو كان بيدي لافتديتك بروحي!

انهمر الدمع مني.. لكن لم يك مجديًا!

ساعات ولبَّىٰ النداء..

رحل الشيخ، وترك المريد..

تركه..

يبحث..

عن إنسان!



تعريف بالشيخ..

- **الأستاذ الدكتور عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس**
- ولد في 12 يوليو سنة 1943م
- من مواليد قرية سندسيس، مركز المحلة الكبرىٰ، محافظة الغربية.
- حفظ القرآن الكريم في سنٍ مبكرة، وتعلم بالأزهر حتىٰ حصوله علىٰ شهادة الثانوية.
- التحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وحصل منها علىٰ ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية سنة 1968م بمرتبة الشرف الثانية.
- حصل علىٰ الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من الدار سنة 1973م، ثم الدكتوراه في ذات التخصص في مارس 1978م بمرتبة الشرف.
- عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي فرع القاهرة، وعضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو اتحاد الكتاب بمصر، وعضو نقابة الصحفيين المصريين.
- عمل محاضرًا لمادة الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ما بين 1975- 1977م، ثم أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا مشاركًا، ثم أستاذًا بالجامعة نفسها.. وخلال هذه الفترة اتُّخِذ مستشارًا لرئيس الجامعة ومتعاونًا في تسيير أعمال رابطة الجامعات الإسلامية.

▪ أوفدته الجامعة أستاذًا زائرًا لعدد كبير من الجامعات في الهند وباكستان، وماليزيا، والجزائر، وتونس، والسودان، وتركيا، وغيرها.

▪ ترأس تحرير مجلة التاريخ الإسلامي في دلهي بالهند بلاشتراك مع الدكتور ظفر الإسلام خان، وقد صدرت عدة سنوات بطريقة دورية.

▪ سجَّل مئات الأحاديث بإذاعة القرآن الكريم بمصر وغيرها.

▪ حاز درجة الدكتوراه الفخرية في الفكر الإسلامي من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان بالجمهورية السودانية 2 أكتوبر2011م، كما حاز علي الوسام الذهبي للعلم والآداب والفنون من الجمهورية السودانية 4 أكتوبر2011م.. بينما لم ينل تكريمًا في بلده، رغم أياديه البيضاء، علمًا وعملًا ودعوةً وإصلاحًا.

▪ قام بتحرير (الملف الفقهي) لجريدة الشرق الأوسط الدولية- وهو بابٌ يومي- لمدة خمس سنوات (1982- 1988م)، وقد أصدرت المؤسسة ملفاته في ثلاثة عشر كتابًا.

▪ اشترك في الإشراف العلمي علىٰ (موسوعة الإدارة العربية الإسلامية 7 مج) لحساب المنظمة العربية للتنمية الإدارية التابعة لجامعة الدول العربية.

▪ أشرف علىٰ إنجاز معجم مصطلحات علوم القرآن، وأسهم بإعداد بعض المواد العلمية، فضلًا عن مسئوليته عن إنجازها.

أهم المؤلفات:

1. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية.

2. أربعون سببًا لسقوط الأندلس.
3. بنو أمية بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي.
4. ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.
5. دولة بني حماد في الجزائر (408 – 547هـ).
6. تفسير التاريخ علم إسلامي (تأصيل لفلسفة التاريخ إسلاميًا) .
7. التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون.
8. المدخل إلىٰ الحضارة الإسلامية.
9. الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات.
10. الإسلام كما أومن به.
11. المسلمون في معركة البقاء.
12. وفي مجال التحقيق بالاشتراك مع أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري (الذهب المسبوك في وعظ الملوك- خلاصة أصول الإسلام وتاريخه لابن حزم- سيرة بني هلال في التاريخ والأدب).
13. تفسير القرآن للناشئين (بالاشتراك مع الأستاذ: علي عبد المحسن جبر).
14. وللأطفال: (عقيدتنا الإسلامية- أخلاق المسلم- مواقف إسلامية رائعة- سيرة الرسول).

وفــاته

كانت وفاته- رحمه الله-

يوم 13 محرم 1433 هـ، الموافق 9 ديسمبر 2012 م.

تعريف بالمريد..

■ **الاســـم: وليد عبد الماجد جبريل كساب**

■ حاصلٌ علىٰ ليسانس الآداب قسم اللغة العربية، وماجستير الدراسات الإسلامية بتقدير «ممتاز»، ويُعد الآن أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.

■ عمل مديرًا لإدارة التنسيق والمتابعة برابطة الجامعات الإسلامية، وسكرتيرًا لتحرير مجلتها «الجامعة الإسلامية» وهي علمية محكمة.

■ عمل مديرًا لإدارة البرامج والمحتوىٰ، ونائبًا للمشرف العام بـ(قناة أزهري) حتىٰ أغسطس 2013م. وقبل ذلك في عدة فضائيات، وتولَّىٰ إدارة مشروع التفسير المصور بقناة الهدىٰ الفضائية.

■ نشرت له عدة مقالات في كثير من الصحف والمجلات، منها: الأهرام ومجلة الجامعة الإسلامية وصحيفة الأهرام المسائي (مصر)، والحياة (لندن)، ومجلة الدعوة ومجلة الأدب الإسلامي (السعودية)، وصحيفة الدعوة (ليبيا).

■ شارك في عدة مؤتمرات ومناشط علمية بمصر والسعودية وتركيا واليمن وقطر وليبيا والسودان، كما شارك في اللجان التحضيرية لما يربو علىٰ مائة فعالية برابطة الجامعات الإسلامية ورابطة الأدب الإسلامي.

■ أعد مشروع دائرة المعارف القرآنية.

- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو نقابة الإعلام الإلكتروني.

الكتب والأبحاث المنشورة:

- الفكر السياسي بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي، بالاشتراك مع أ.د عبد الحليم عويس.
- أبو عبيدة بن الجراح.. رجل السقيفة وفاتح بيت المقدس.
- الإسلام في مواجهة الإرهاب (مُؤلَّف مشترك) رابطة الجامعات الإسلامية ـ 1424هـ = 2003م.
- قضية الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي (دراسة) مجلة الأدب الإسلامي العددان (43، 44)، 1425هـ = 2004م.
- التسامح في الفكر الإسلامي (مُؤلَّف مشترك) من إصدارات رابطة الجامعات الإسلامية، 1425هـ = 2005م.

كتب وأبحاث قيد النشر

- التلوين البلاغي في القرآن الكريم.
- المقاصد الإنسانية للسور القرآنية.
- الأعمال المجهولة لمصطفىٰ صادق الرافعي.
- دراسات في أدب الرافعي.
- العَنْزَة.. وقصص أخرىٰ (قصص أدبية من وحي التاريخ)
- قراءة في أدبيات الاستبداد.



الفهرس